القراءات الحداثية للقرآن الكريم
ومناهج نقد الكتاب المقدس
دراسة تحليلية نقدية

يوسف الكلاّم

مؤسسة دار الحديث الحسنية

للدراسات العليا والبحث العلمي الرباط

مقدمة

كثر الحديث في الآونة الأخيرة حول "المفكرين الجدد للإسلام" وقراءاتهم الجديدة والحداثية للقرآن الكريم، وتصديهم للتراث الإسلامي برمته قرآنا وسنة بالقراءة والتحليل والنقد، متحررين في ذلك من القيود التي فرضها السلف على كل من أراد الخوض في قضايا القرآن ومحاولة فهمه، رافضين لتلك المناهج الإسلامية التقليدية التي تجاوزها الزمان والمتمثلة أساسا في تفسير القرآن بالقرآن أو تفسير القرآن بالسنة أو حتى تفسيره بالرأي.

وبدلا من هذه المناهج الإسلامية القديمة يقترح هؤلاء مناهج حديثة، يعتقدون أن تطبيقاتها على النص القرآني ستفرز نتائج هامة من شأنها أن تمكن الفكر الإسلامي من الانفلات من قيود الماضي، وقبضة التخلف الذي أحكم سيطرته على المسلمين منذ قرون خلت، وبالتالي تحقيق النمو الفكري والتقدم الحضاري المنشودين منذ سقوط الحضارة الإسلامية، وقُدوة هؤلاء ونموذجهم الأمثل ما حققه الغرب من انطلاقة فكرية بعد تحلله من محرمات الكنيسة، وتجاوز المفكر الغربي لتفسيراتها للنصوص الدينية، واتصاله المباشر بالنص التوراتي والإنجيلي، راميا وراء ظهره وساطة الكنيسة،

ومستعينا بالمناهج النقدية الحديثة في فهم النصوص البشرية من أجل فهم أحسن للنص الديني المقدس.

ويسعى هذا البحث إلى الإجابة عن بعض الأسئلة التي قد تخطر ببال القارئ المسلم وهو يرى هذه الدعوة المستميتة لهؤلاء المفكرين الجدد للإسلام وحرصهم على ضرورة تطبيق هذه المناهج الحديثة على النص القرآني من أجل اكتشاف أعمق لمعاني كتاب الله عز وجل، وادعائهم المستمر تقادم المناهج الإسلامية التي لم تعد تفي بالغرض المطلوب ولا تلبي المقصد الإلهي المنشود المتمثل في البيان والتبيين للناس ما نزل إليهم، في الوقت الذي عزف فيه المتخصصون في علوم القرآن والقراءات والتفسير من خريجي الجامعات والمعاهد الإسلامية عن الخوض في هذا المجال.

والحقيقة أنه لا يمكن للباحث الحكم على مدى صحة هذه القراءات إلا بعد الاطلاع على حقيقة الكتاب المقدس ومعرفة طبيعته البنيوية واللغوية والوقوف مع طريقة تدوينه وجمعه وتشكله، لأن المناهج التي طبقت عليه تتناسب وتتوافق مع هذه الطبيعة التي تميزه عن سائر النصوص الأخرى، وفي الآن نفسه مقارنته مع القرآن الكريم في كل هذه الجوانب، فإذا ثبت بعد المقارنة العلمية بينهما أن النصين متشابهان جاز لنا تطبيق الناهج نفسها على القرآن أيضا، ولكن إذا تبين أن ثمة خلافا بينهما فستكون عملية تطبيق هذه المناهج عملية غير علمية وإنما إسقاطية.

لذلك سيكون بحثنا هذا على الشكل التالي:

المبحث الأول: الكتاب المقدس: لغاته وتدوينه وتقنينه

المبحث الثاني: القرآن الكريم: لغته وتدوينه وقراءاته

المبحث الأول الكتاب المقدس

تدوين الكتاب المقدس: تدوين أسفار العهد القديم

إن التوراة التي بين أيدينا لم تأخذ شكلها النهائي الذي هي عليه اليوم إلا بعد مرور عدة قرون. إذ التوراة التي كتبها موسى ضاعت وفقدت منذ مدة، ومن أهم أسباب ضياعها كفر بني إسرائيل وارتدادهم المستمر عن عقيدة التوحيد وتخليهم عن شريعة موسى، وقد تتبع ابن حزم تاريخ بني إسرائيل منذ موسى إلى أن عادوا من السبي البابلي، ووقف مع أحوالهم وأحوال ملوكهم وكهنتهم وحال التوراة طيلة هذه المدة، وأثبت متبعا في ذلك منهجا تاريخيا نقديا أن التوراة تعرضت للتبديل والتحريف، وخلص إلى أن التوراة التي يؤمن بها بنو إسرائيل هي التوراة التي كتبها لهم عزرا بعد السبي البابلي[1].

وساعد على ضياع التوراة أيضا كونها لم تكن إلا عند الكاهن الهاروني دون غيره يقول ابن حزم: "إنها لم تكن إلا في الهيكل فقط عند الكوهن الهاروني فقط لا عند أحد سواه.. وقد كان في الكهنة الهارونيين ما كان في غيرهم من الكفر والفسق وعبادة الأوثان.. ومن هذه صفته فلا يؤمن عليه تغيير ما ينفرد به."[2] ولقد تمكنت الدراسات النقدية التي عرفها الكتاب المقدس من تحديد مراحل تدوين أسفار العهد القديم، وحددتها في مرحلتين أساسيتين شفهية وكتابية:

المرحلة الشفهية: من سمات القبائل الرحل اعتمادها في نقل الذكريات الوطنية والعائلية على المرويات الشفهية، وقد كانت القبائل العبرية[3] قبائل بدوية تعتمد على الرعي والترحال بحثا عن

---

[1]. الفصل ص: 287-302

[2] ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، ص: 200-201

[3] لتحديد مصطلحات عبري إسرائيلي يهودي يمكن الرجوع إلى أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دمشق، العربي للإعلان والطباعة والنشر الطبعة الثانية، المقدمة ص: ف.

الكلأ لقطعانها[1]. ولم يكن لها سبيل إلى الحفاظ على الذكريات والأناشيد الدينية سوى ذاكرة الشيوخ التي لعبت دور الخزان الثقافي والمعرفي للقبيلة، ومعظم كتب العهد القديم هي من هذا القبيل، مجموعة من الآداب الشفهية والتقاليد الشعبية التي كانت تُتلى من الذاكرة وقت اللزوم، إذ كانت الذاكرة هي الطريق الوحيد لتداول الأفكار وانتقالها.

ونظرا للظروف التي عاشها شعب إسرائيل، فقد تراكم لديه موروث شفاهي كبير جاء بعضه بين دفتي الكتاب المقدس، أمثال نشيد النصر[2]، وأنشودة البئر الشهيرة[3]، ونشيد موسى[4]، ونشيد دبورة[5]، ولكن جزءا مهما منه تعرض للتلف والنسيان، "إن هذا الكراس (أي الكتاب المقدس) غير كامل لأنه كتب بلغة ومنظور كانا قبل عشرين إلى ثلاثين قرنا، حدث خلالها تطور متسارع، ثم إنه لا يتم تلخيص ألف سنة من التاريخ بألف صفحة دون أن تفقد الكثير من جوهرها"[6].

المرحلة الكتابية: لم يبدأ تدوين التاريخ الإسرائيلي إلا بعد قيام مملكة داود وسليمان عليهما السلام[7] (931-970)ق.م، لما بدأت المملكة تعرف استقرارا وانتقل حال شعبها من النظام القبلي إلى نظام الدولة المستقر، فتَكَوَّن في أورشليم عاصمتها ومركزها الديني –على غرار المملكات الأخرى- نخبة من الموظفين المِلكِيّين كوَّنوا ما عُرف بسلك الكتبة، تمثلت مهمتهم في حفظ الوثائق التاريخية والمراسلات الملكية، وفي عهد سليمان قام أحد هؤلاء بتحرير تاريخ داود

[1] مثال رحلة أبرام إلى أرض كنعان التكوين 13:12، ورحلة يعقوب إلى سهل آرام التكوين28، ورحلة إخوة يوسف إلى مصر.

[2] إشعيا26

[3] العدد16:21

[4] تثنية32

[5] القضاة5

[6] جون بوتيرو،ولادة إله التوراة والمؤرخ، ترجمة جهاد الهواش وعبد الهادي عباس، سورية، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، دار الكلمة للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولى ص: 21

[7] نقصد هنا كتابة التاريخ الإسرائيلي بما فيه كتب التوراة الحالية، وليس توراة موسى التي نزلت مكتوبة من عند الله.

الوارد في سفر صمويل الثاني العدد التاسع الإصحاح العشرين، وسفر الملوك الأول الإصحاح الأول العدد الثاني، وأعاد كاتب آخر تحرير التاريخ نفسه محاولا إعطاءه طابعا لاهوتيا.

وتعتبر مزامير داود النواة الأولى التي نُسجت حولها المزامير الحالية المنسوبة بأكملها إليه، وكذلك الشأن بالنسبة لسليمان وسفر الحكمة المنسوب إليه، فما كتبه سليمان كان يسيرا بالمقارنة مع ما يضمه السفر الحالي؛ وبعد موت هذا الأخير وانشقاق مملكته إلى مملكة الشمال إسرائيل ومملكة الجنوب يهوذا، تكون لدى كل مملكة سلكها الخاص من الكتبة، فنهض كل سلك يُدون **ما علق بذاكرته** من قصص الآباء وروايتهم حول الخلق، وأيام الطوفان، والخروج من أرض مصر والتيه والحروب التي خاضها الأسلاف من أجل الدخول إلى أرض الميعاد، وكل الأحداث التي كونت فيما بعد الأسفار الخمسة، وتميزت رواية كل مملكة عن نظيرتها مع أن كلاهما يدَّعي رواية الحدث نفسه، فتميزت رواية مملكة يهوذا بإطلاق اسم "يهوه" على الذات الإلهية وبأسلوب قصص صرف تميز بروعة الإيجاز وقوة العبارة، وسميت هذه الرواية لدى المختصين بالتقليد "اليهوي" نسبة إلى "يهوه"[1].

أما رواية مملكة إسرائيل للأحداث التي عاشها الأسلاف، فهي أكثر تحفظا من رواية يهوذا نظرا للانحرافات العقدية لمملكة إسرائيل وزيغها عن طريق الله، إذ لم يتولَّ فيها الحكم ملك مؤمن قط[2] عكس مملكة يهوذا التي تداول فيها الملك بين مؤمن وكافر، وتميزت هذه الرواية بإعطائها للذات الإلهية اسم إلوهيم، ومن هنا أخذت اسم التقليد "الإلوهيمي" وتميزت بأسلوب قصصي يحاول الابتعاد عن الرواية الصرفة إلى الرؤية اللاهوتية، وخلافا للتقليد اليهوي الذي صور يهوه على شكل بشري يأكل ويشرب ويحب ويكره، حاول التقليد الإلوهيمي تنزيه إلوهيم عن هذه الصفات البشرية.

---

[1] كمال الصليبي، خفايا التوراة وأسرار شعب بني إسرائيل، بيروت، دار الساقي الطبعة الثانية 1994م ص:11.

[2] ابن حزم، الفصل في الملل.. مصدر سابق، الجزء الأول، ص: 291-298

وبعد سقوط مملكة إسرائيل في يد الآشوريين سنة 722 ق.م هاجر بعض أهلها إلى مملكة يهوذا حاملين معهم رواياتهم الإلوهيمية للأحداث الماضية كما دونها كتبتهم وأنبياؤهم وضمنها **سفر الشريعة**[1]، ونتيجة لهذا التلاقي بدأت عملية دمج الروايتين اليهوية والإلوهيمية وجمعهما في كتاب واحد، فكان يؤتى بالروايات حول الموضوع الواحد من الروايتين معا وتوضع جنبا إلى جنب، فتلحق القصص عن الخلق والطوفان والخروج مثلا عند كتبة إسرائيل بقصته عند كتبة يهوذا، واحتاجت هذه العملية إلى **تدخل الجمَّاعين** للتوفيق فيما بينها، فقاموا **بإضافة** العبارات اللازمة للربط بين مختلف الفقرات ذات الموضوع الواحد، فتكونت بذلك النصوص الأولى للأسفار الخمسة، أما سفر الشريعة فقد أُدرج برمته في الكتاب لعدم توفر مملكة يهوذا على رواية له، لكن بعدما خضع لعملية مراجعةٍ وتنقيحٍ تمت على ضوء الظروف الجديدة التي تعيشها مملكة يهوذا، ولذلك اعتبره المهتمون بالبحث عن مصادر الكتاب المقدس تقليدا مستقلا إلى جانب التقليدين الآخرين[2].

ولقد خضع هذا السفر المحمول إلى مملكة يهوذا **للمراجعة والتنقيح قبل النشر** من قبل المصلحين الدينيين الذين عرفتهم مملكة يهوذا، والذين وجدوا في السفر المذكور ضالتهم، واعتبر مصلحو هذه الحقبة سقوط السامرة تحذيرا إلهيا ووعيدا مباشرا موجها إليهم، فقاموا يعظون الشعب ويحذرونه من مصير شبيه بمصير نظيره، ووجدوا في السفر الذي بين أيديهم مادة خام قابلة **للتشكيل والصياغة** وفق ما يرونه مناسبا لعصرهم وواقعهم.

وواصل الإصلاحيون عملهم الإصلاحي بهدف "إعادة نشر الشريعة نفسها وعلى ذلك **أعادوا صياغة** تاريخ شعبهم بكامله من منظارهم الخاص. **تدخلاتهم** واضحة في الأسفار التاريخية

---

[1] قدمنا في كتابنا الموسوم تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقديس، الأدلة التي تثبت أن سفر الشريعة كان مع مملكة الشمال مملكة إسرائيل لأن سبط لاوي المكلف بالشريعة هو أحد اسباط مملكة الشمال، راجع كتابنا المذكور ص:

[2] ذكر Wilfrid HARRINGTON أن سفر الشريعة كان في مملكة الشمال دون مملكة الجنوب لذلك لا توجد له روايتان كغيره من الأسفار
Wilfrid HARRINGTON, Nouvelle introduction de la Bible, . Op. Cit. p. 25

بشكل خاص، في الأسفار التي تتبع تثنية الاشتراع: يشوع، القضاة، صمويل، الملوك. **هدفهم كان تبيان** كيف أمكن لهذه الشريعة قيادة إسرائيل بعد موسى الذي رسخها. لهذه الغاية **كتبوا القليل بالحقيقة** لكنهم لجؤوا إلى أسلوب آخر هو **دمج وإعادة النظر** بوثائق موجودة **أضافوا** إليها الشروح والتفسيرات أو **دمجوها** ببعضها بشكل محكم مما يعبر بوضوح عن اهتماماتهم ومذهبهم"[1]

من خلال هذه الإطلالة السريعة على مراحل تدوين بعض أسفار العهد القديم، يتضح أن هذا الأخير باعتراف أهله نتاج لعمل بشري قام به أحبار اليهود وبعض علمائهم معتمدين على مصادر شفهية تناقلوها وتوارثوها فيما بينهم لزمن طويل ليتم تحريرها بصفة نهائية في **زمن متأخر أثناء السبي أو بعده** (537 ق.م).

تدوين أسفار العهد الجديد.

ولا يختلف تدوين أسفار العهد الجديد عن تدوين أسفار العهد القديم، فهو أيضا امتد تدوينه عبر قرون مديدة، مع أن زمن عيسى υ عرف منذ البدء فن الكتابة، إلا أن المعارضة التي لقيتها دعوته والاضطهادات التي عرفها أتباعه من طرف اليهود والرومان حالت دون تدوين الإنجيل.

ولا نتوفر للعهد الجديد هو الآخر على نص مخطوطة يرجع زمن تدوينها إلى زمن المسيح، نظرا للحوادث التي تعرض إليها المسيحيون، ولقد ذكر رحمت الله الهندي أن المسيحيين تعرضوا لعشر قتلات عظيمة ضاعت معها جميع النسخ المتبقية من الإنجيل[2].

إن أكبر مشكل يعترض الباحثين عند تأريخهم لكتابة أسفار العهدين **عدم تمكنهم من تحديد أصحاب هذه الأسفار، إذ كل سفر هو نتاج لمجموعة من المؤلفين المختلفين زمنيا**

[1] جون بوتيرو، ولادة إله، مرجع سابق، ص: 88

[2] رحمت الله الهندي، إظهار الحق، الجزء الثاني ص: 609-614

ومكانيا، فكان يبتدئ كتابة السفر كاتب في زمن معين وفي مكان معين، ويواصل كاتب آخر كتابة السفر نفسه لكن في زمن مختلف ومكان مختلف، ولا شك أن كل كاتب يبدأ بمراجعة ما كتبه أسلافه فيُعَدِّل ويصحح قبل الشروع في الكتابة، فيبقى السفر عرضة للتبديل والتعديل مع كل كاتب جديد. ومع أن المسيحيين يشتركون مع اليهود في الإيمان بالعهد القديم إلا أن العهد القديم عند المسيحيين يختلف عن نظيره اليهودي عدديا وترتيبا، ومن أهم أسباب هذا الاختلاف هو **تأخر كتابة النصوص المقدسة** التي اشتمل عليها العهدان القديم والجديد عن **زمن نزولها، مما** جعل عددها غير مضبوط وغير معروف.

قانونية[1] الكتب المقدسة.

الكتب القانونية لدى اليهود

يحاول اليهود بيان أن هذه الكتب كانت معروفة قبل انعقاد المجمع يمنية (سنة 70م) الذي أعطاها فقط الصفة القانونية، وذلك من خلال بعض الإشارات الواردة في أسفار العهد القديم نفسه، حيث يمكن تكوين صورة بشأن الكتب، فقد ورد في سفر التثنية: "وكتب موسى هذه الشريعة وأعطاها لكهنة بني لاوي"[2]، فمن خلال النص يظهر حقيقة أن موسىυ دون سفر الشريعة، لكن لا ينبغي مطلقا أن يفهم منه كما يدعي الكثيرون من اليهود والمسيحيين أن موسىυ

---

[1]تعني كلمة "قانون" في أصلها الإغريقي: χανών، العصا المستقيمة، واستعملها الآباء الكنسيون الأوائل بمعنى "المقياس" وبالخصوص "مقياس الحقيقة" كما هو الشأن عند Clément d'Alexandrie، وبمعنى "مقياس العقيدة" لدى Polyerate

F. VIGOUROUX Dictionnaire de la Bible publier avec le concours d'un grand nombre de collaborateur tome II Paris Letouzey et Ané éditeur 1899 de la lettre C à F page: 134-135.

[2] التثنية31:9-11. وورد في السفر نفسه قوله: "ولما فرغ موسى من تدوين كلام هذه الشريعة كلها في سفر قال للاّويين حاملي تابوت عهد الرب خذوا سفر الشريعة هذا وضعوه إلى جانب تابوت عهد الرب إلهكم فيكون هناك عليكم شاهدا" التثنية31:24-26.

كتب الأسفار الخمسة الحالية باعتبار هذه الأخيرة هي سفر الشريعة، فالدراسات النقدية لهذه الأسفار بينت خطأ ذلك[1].

وتشير نصوص أخرى من العهد القديم على أن **كتبا أخرى أضيفت إلى سفر الشريعة،** لكن لا ندري متى تم ذلك؟ فقد سجل يشوع الشريعة[2]، وجمع الملك حزقيا أمثال سليمان[3]، وصرح دانيال أنه قرأ كتب إرميا ونبوءاته[4]. وأشار الإصحاح الثاني من سفر المكابين إلى وجود سجلات منسوبة إلى إرميا النبي[5]، وأنه جمع فيها أخبار الملوك أيضا[6]، وهذا النص الأخير يفيد أن كتب اليهود لا تتضمن النصوص الدينية المقدسة فحسب، وإنما تشتمل أيضا على رسائل الملوك.

وثمة اختلاف في عدد الأسفار المقدسة بين أسفار "تنخ"، التي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: التوراة، والأنبياء والمكتوبات وتحتوي جميعها على تسعة وثلاثين سفرا، مع أقدم المخطوطات العبرية التي لا تتحدث سوى عن أربعة وعشرين سفرا، ويبرر اليهود هذا الاختلاف بكون هذه المخطوطات مزجت بين بعض الأسفار فاعتبرت الأسفار المزدوجة سفرا واحدا، كسفري صمويل وسفري الملوك وسفري أخبار الأيام، وعدت أسفار الأنبياء الاثني عشر سفرا واحدا، وكذا سفري عزرا ونحميا سفرا واحدا.

[1] سبينوزا باروخ، رسالة في اللاهوت والسياسة، مرجع سابق، الفصل الثامن ص: 265 وما يليها.

[2] يشوع24:26.

[3] الأمثال25:1.

[4] دانيال9:2.

[5] المكابين الثاني2:1

[6] المكابين الثاني2:13-14

وإن كان التلمود أيضا، قسم الأسفار اليهودية المقدسة إلى ثلاثة أقسام، فهو يختلف مع ما قرره نص الماسورا بشأن ترتيب هذه الكتب[1]، ويرى Alfred LOISY أن هذا الترتيب الذي جاء في التلمود أقدم من كل المخطوطات المعروفة للتوراة العبرانية ومن عمل الماسورا[2].

ولا يعد يوسيفوس[3] من كتب اليهود سوى اثنين وعشرين كتابا[4]. وتتوافق الكتب التي أدرجها يوسيفوس مع ما عدَّده أوريجين وجيروم من حيث العدد، ومع التوراة السبعينية من حيث التقسيم، بدمجها سفر راعوث مع سفر القضاة، وسفر المراثي مع سفر إرميا.

ورغم كل ذلك فبعض أسفار العهد القديم بقيت موضوع نقاش وجدل، وبقيت التقاليد اليهودية غير مؤكدة فيما يخص تحديد قانون كتب العهد القديم، ففي البدء كان سفر الأمثال مرفوضا وكذا سفر نشيد الأناشيد وسفر الجامعة؛ وبقي الشك محيطا بهذه الكتب إلى نهاية القرن الأول الميلادي، وقد أورد A. COHEN النقاشات التي عرفتها مجموعة من كتب العهد القديم

[1] نص "الماسورا" نسبة إلى "الماسوريين" وهم جماعة من علماء اليهود تقلدوا مهمة **إعادة بناء النص وتقويمه**، حيث وضعوا التنقيط والتشكيل وأدخلوه على النص، فالعبرية كمثيلاتها من اللغات السامية لا تحتوي في الأصل على حروف المد والتشكيل.

[2] LOISY Alfred, Histoire du canon de l’ancien testament, Op. Cit. p. 13.

[3] هو يوسف ابن ماتياس مؤرخ يهودي ازداد سنة 37م

Flavius Josèphe, Autobiographie, texte établie et traduit par André PELLETIER, ouvrage publié avec le concours du centre national de la recherche scientifique, Paris société d’édition ‘‘les belles lettres’’, 1959, collection des univérsités de France publiée sous le patronage de l’association GUILLAUME BUDE. Page: 1-2

[4] Flavius Josèphe, Contre Apion, texte établie et et annoté par Théodore REINACHE et traduit par par Léon BLUM, Paris société d’édition ‘‘les belles lettres’’, 1930, collection des universités de France publiée sous le patronage de l’association GUILLAUME BUDE. Livre I. 8; page 10.

قبل قبولها بصفة نهائية في القانون[1] . ودون الدخول في مضمون هذه الكتب، ومدى صحة نسبتها إلى أصحابها، نرى أن الاختلاف قديم بخصوص عددها وترتيبها.

الكتب القانونية للعهد القديم المسيحي

تزيد كتب العهد القديم لدى الكاثوليك **بسبعة أسفار** تُسميها اليهود أبوكريفا، في حين يعتبرها الكاثوليك كتبا قانونية ثانية، والسبب في هذا الاختلاف العددي هو اعتماد المسيحيين قانون العهد القديم لدى اليهود الذين استقروا بالإسكندرية واعتمدوا الترجمة السبعينية اليونانية التي عرفتها التوراة[2]. ويختلف اليهود مرة أخرى مع المسيحيين بشأن واضعي قانون العهد القديم، فقد أسند اليهود هذه المهمة إلى المجمع اليهودي، معتمدين في ذلك على نص ورد في التلمود[3].

---

[1] A.COHEN, Le Talmud, traduit de l'anglais par Jacques MARTY édition Payot, Paris 1950, Petite bibliothèque Payot/65, page : 194-197

[2] تخبرنا الأسطورة الواردة في رسالة Aristée إلى Philocrate أن هذه الترجمة كانت نتيجة عمل قام به اثنان وسبعون حبرا يهوديا زمن بطليموس الثاني (285-246ق.م) تم اختيارهم من طرف الحبر الأعظم بعد قيام كل واحدة منهم بترجمته للتوراة على حدة وجاءت ترجماتهم متوافقة.

De Vita Mosis, Philon d'Alexandrie, Oeuvres de Philon d'Alexandrie, publiées sous le patronage de l'uiniversité de Lyon, par Roger ARNALDEZ, Claude MONDESERT, Jean POUILLOUX, couroné par l'Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, avec le concours du centre national de la recherche scientifique. 22, DE VITA MOSIS I-II, introduction, traduction et notes Jean POUILLOUX, Pierre SAVINEL, Paris, éditions du cerf, 1967, II 25-40, pages: 203-211.

والقصة نفسها ذكرها يوسيفوس في تاريخه المشهور، تاريخ يوسيفوس بن كربون اليهودي، المطبعة العلمية بيروت، مصدر سابق، ص: 49-51، والقديس saint Augustin, La cité de Dieu, texte et traduction avec une introduction et des notes par Jacques PERRET, tome II, Librairie Garnier Frères, classique Garnier, page 22, chapitre 11 : Platon a-t-il connu les livres saints.

[3] Talmud, Baba Bathra, f°14b-15a

نقلا عن: A. Loisy, Histoire du canon de l'ancien testament, pp. 22-23

أما المسيحيون فينسبون قانون العهد القديم لعزرا، معتمدهم في ذلك أحد كتب الأبوكريفا وهو الكتاب الرابع لعزرا، حيث صور هذا الكتاب عزرا على أنه موسى الثاني، الذي كُلف بتعليم وتقويم الشعب باسم الله، فتضرع إلى الله ليؤيده بالروح القدس من أجل كتابة كل ما حدث منذ البدء كما ورد في الشريعة، وبالفعل استجيب له وتمكن من إملاء أربعة وتسعين سفرا بما فيها التوراة لمدة أربعين سنة على مرافقيه، على أن لا تشاع بين أفراد الشعب سوى أربعة وعشرين منها، أما الأسفار السبعين فتبقى من اختصاص طبقة الحكماء فقط.[1]

ولقد شكك A. Loisy في صحة هذا الرواية لكونها مخالفة للعقل وللحقائق التاريخية، وهو محق في ذلك خاصة وسفر عزرا القانوني وكذا سفر نحميا لا يتكلمان عن كتابة عزرا لأي من هذه الأسفار، وكل ما ورد بشأن عزرا في السفر المنسوب إليه قوله: "وكان عزرا عالما ماهرا في شريعة موسى"[2]، أما سفر نحميا فلم يورد القصة واكتفى بكون عزرا من أحضر كتاب شريعة موسى وقرأها على الشعب ومن قام بمراسيم القراءة[3].

والحقيقة أن **الشك يتطرق لكتا الروايتين اليهودية والمسيحية لواضع العهد القديم**، فالتنصيص في الرواية التلمودية على أن موسى من كتب الأسفار الخمسة وجزء **بلعام وأيوب** فيه دليل على وجود نقاش حول كاتب جزء بلعام، فهذا الجزء متضمن في الأسفار الخمسة[4] ولا حاجة إلى ذكره مرة أخرى، لكن اعتراف الأسفار الخمسة بنبوة بلعام يورد احتمال كتابته لهذا الجزء وإعطائه لموسى ليدرجه في أسفاره، فالرواية التلمودية حاولت بتأكيدها على أن موسى هو كاتب هذا الجزء استبعاد هذا الاحتمال، ونفس الأمر بالنسبة لسفر أيوب، فهذا الأخير ليس من بني

---

[1] A. Loisy, Histoire du canon de l’ancien testament, Op. Cit. pp. 18-19

[2] عزرا6:7

[3] نحميا1:8-12

[4] سفر العدد الإصحاح 22 و23 و24

إسرائيل ولا علم له بالشريعة الموسوية، بل أكثر من ذلك فقد عاش قبل زمن موسى، فحاولت الرواية التلمودية رفع الشك ونسبت السفر إلى موسى[1].

أما الشك في رواية المسيحيين فيكفي أنها اعتمدت سفرا أبوكريفا منحولا غير معترف به، فكيف **يُستدل بنص مشكوك في صحته على صحة رواية واضع العهد القديم؟**

وما دام الشك محيطا بواضعي القانون لدى اليهود والمسيحيين، فالريبة واردة أيضا بشأن مضمون نص الكتب القانونية، وحتى لو افترضنا صحة التوراة التي كتبها عزرا فقد أثبت رحمة الله الهندي أن هذه الأخيرة نفسها قد ضاعت نتيجة لما تعرض له اليهود من هجوم انتيوكس الرابع الذي حكم سوريا ما بين سنتي 175-163ق.م والذي أراد أن يمحق ديانة اليهود ويصبغها بالصبغة الهيلينية[2]، **وأن التوراة التي تؤمن بها النصارى اليوم ليست هي التي كتب عزرا.**

ويورد الشك الذي تعرفه صحة النصوص الدينية اليهودية والمسيحية شكا في كل العقائد التي تدين بها اليهود والنصارى، مما جعل بعض "النقاد" المسيحيين أمثالA.Loisy يعترفون بالخطأ التاريخي الذي ارتكبه الآباء باتباعهم لهذه الرواية التي تنسب كتابة التوراة لعزرا، لكنه يدعي أن هذا الخطأ التاريخي لا علاقة له بالعقيدة.[3]

الكتب القانونية للعهد الجديد

---

[1] ناقش A. Loisy هذا النص التلمودي مناقشة ضافية في الصفحات من: 22 إلى28. كتابه:
Histoire du canon de l'ancien testament

[2] رحمة الله الهندي، إظهار الحق، مصدر سابق، الجزء الأول ص: 112 و مختصر إظهار الحق، محمد عبد القادر ملكاوي طبع ونشر وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد، وكالة شؤون المطبوعات والنشر الرياض المملكة العربية السعودية 1416هـ/1995م ص:20

[3] A. Loisy, Histoire du canon de l'ancien testament, Op. Cit. p. 21

"إن مصدر العقيدة الجديدة التي يدعو إليها الناس لم تكن كتابا ولا مجموعة كتب، إن تعاليم السيد المسيح وكذا تعاليم تلاميذه كانت تعليما شفهيا وسمعيا وليس تصانيف كتب لها مكانة بجانب الكتب الأولى"[1]. وبعد موت المسيح وحوارييه لم يرث أتباعهم سوى أقاويل بخصوص سيرة المسيح منذ ولادته إلى يوم "صلبه وقيامته". وعليه لم تتسلم الكنيسة إذن الأناجيل من أيدي الرسل وإنما تكونت هذه الأخيرة بشكل مجزء على مر العصور بطريقة تختلف من مجتمع إلى آخر من المجتمعات المسيحية، مما أثار جدلا بين الكنائس المسيحية حول الكتب الواجب الأخذ بها من بين الأعداد الهائلة للكتب والأناجيل المسماة مقدسة، ولا أدل على تعدد هذه الكتب من قول لوقا في الإنجيل المنسوب إليه "لأن كثيرا من الناس أخذوا يدونون رواية الأحداث التي جرت بيننا كما نقلها إلينا الذين كانوا من البدء شهود عيان وخداما للكلمة رأيت أنا أيضا بعدما تتبعت كل شئ من أصوله بتدقيق أن أكتب إليك يا صاحب العزة ثاوفيليس"[2].

ولننظر في باقي كتب العهد الجديد عن إشارات تعطينا صورة عن قانون كتب العهد الجديد أو عن عددها أو أسمائها. فبخصوص رسائل بولس فقد حث هذا الأخير في آخر رسالته إلى أهل كولوسي أهل كولوسي على أن يرسلوا رسالته إليهم بعد الانتهاء من قراءتها إلى كنيسة لاودوكية، وأن يطلبوا في الوقت نفسه من هؤلاء رسالته إليهم[3]، ولا شك أنه كان يسعى إلى أن تتم مبادلة رسائله بين مختلف الكنائس حتى تتوفر كل منها على مجموعها؛ لكن ما يثير الانتباه عدم وجود رسالته إلى كنيسة لاودوكية ضمن الرسائل القانونية الأربعة عشر، وليست هذه الرسالة وحدها التي أشير إليها في أسفار العهد الجديد ولا أثر لها في قانون الكتب الحالي، بل هناك رسائل أخرى لم تعرف طريقها إلى القانون، ولا ندري أفقدت أم أن الكنائس لم تعتبرها إلهامية لعدم الثقة بها، ففي

---

[1] L-M.DEWAILLY, Canon du nouveau testament et histoire des dogmes, Revue biblique, vivre et penser recherche d'exégèse et d'histoire, 1er série Paris librairie LECOFRE 1941, page : 82.

[2] لوقا1:1-3

[3] كولوسي 16:4

رسالته إلى أهل كورنثوس الأولى يقول بولس: "كتبت لكم في **رسالتي** ألا تخالطوا الزناة"[1] وقوله هذا يدل على أن هذه الرسالة ليس هي الأولى إلى أهل كورنثوس، بل كتب لهم قبلها، بدليل قوله في رسالته الثانية لهم يقول: "فأنا لا أريد أن أظهر كأني أحاول التهويل عليكم **برسائلي**"[2] فاستعماله لكلمة رسائلي بالجمع دليل على أنها ثلاث رسائل على الأقل، وبالتالي فرسائله أكثر من أربعة عشر، ولقد تحدث ابن حزم عن خمس عشرة رسالة منسوبة لبولس عند النصارى يقول: "ورسائل بولس تلميذ شمعون باطرة وهي خمس عشرة رسالة تكون كلها نحو أربعين ورقة مملوءة حمقا ورعونة وكفرا"[3]، ولقد أحال بطرس في رسالته الثانية على رسائل بولس، لكن لا ندري على أي منها يحيل؟ وكم عددها؟ وهل هي ضمن مجموع الكتب القانونية الحالية أم لا؟

هذه الإشارات البسيطة القليلة الواردة في العهد الجديد لا تعطي صورة واضحة عن كتب العهد الجديد ولا عن كيفية تكونها، ولا يمكن الاعتماد عليها في ادعاء تمام هذه الرسائل وتوفر جميع الكنائس عليها كما كان يطمح إلى ذلك بولس، كما لا يمكن أن تُعتمد كدليل على قانونية الكتب المذكورة، لسبب بسيط هو أن العهد الجديد أورد أيضا كتبا ليست ضمن القانون، مثل رسالة بولس إلى كنيسة لاودكية ورسالته إلى أهل كورنثوس، فإما أن تقبل جميعها ضمن القانون أو ترفض كلها.

ولو تفحصنا هذه المرة المخطوطات الإغريقية للعهد الجديد لوجدناها تضم كتبا شتى، بعضها قانوني والبعض ليس كذلك، فمخطوط Claromontanus أورد سبعة وعشرين كتابا من كتب العهد الجديد وبمقارنة هذه الكتب مع كتب المعترف بها حاليا، نلاحظ أن **أسماء الكتب تغيرت** في حين بقي عددها سبعة وعشرين، حيث ذكر من بينها رسالة **يهوذا**؛ رسالة **برنابا**؛

---

[1] كورنثوس الأولى9:5

[2] كونثوس الثانية9:10

[3] ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل الجزء الثاني ص: 15.

باستور؛ أعمال بولس؛ رؤيا بطرس. وحذف منها أربع رسائل لبولس رسالته إلى العبرانيين ورسالته إلى فيليبي ورسالتيه إلى تسالونيك.

أما المخطوط السينائي فضم إلى جانب الكتب المعترف بها بعض الكتب غير المعترف بها كرسالة برنابا وجزء من باستور. وكذلك أدرج المخطوط الفاتيكاني بعض الكتب غير القانونية[1].

وتأتي نُقُول الآباء بكتب كثيرة منها القانوني ومنها غير ذلك، فالقديس JEROME شكك في رسالته إلى PAULIN في الرسالة إلى العبرانيين حيث يقول:"وُيشك في نسبة الرسالة إلى العبرانيين إلى بولس لاختلاف الأسلوب فيها عن باقي الرسائل"[2].

ويرجع المسيحيون الاختلاف بين نقول الآباء والمخطوطات القديمة عند استشهادهم ببعض النصوص المقدسة إلى كون الآباء يستندون إلى ذاكرتهم عند الاستشهاد، لكن الأبحاث الحديثة أثبتت أن هؤلاء كانوا أكثر حرصا على النص التوراتي وأكثر حرفية، مما يدل على أنهم اعتمدوا نصوصا مخالفة للنصوص الحالية وأكثر قدما وقربا من الأصل من المخطوطات الحالية[3].

فمن أجل إثبات تاريخية وصحة الكتب المدرجة في قانون الكتاب المقدس بعهديه، سعى اليهود والمسيحيون إلى التنقيب واستخراج النصوص الدالة على ذلك من الكتاب المقدس نفسه ومن كتب الآباء ونقولهم ومن المخطوطات المتوافرة لديهم، لكن عملهم هذا بقي بلا جدوى، فنفس الدلائل التي أوردوها للبرهنة على صحة كتبهم يمكن اللجوء إليها لإثبات أن كتبا أخرى لا وجود لها في القانون، صحيحة وتاريخية أيضا، بالإضافة إلى ذلك فأدلتهم هذه لا تثبت صحة أي كتاب من

---

[1] A. LOISY, Histoire du canon du nouveau testament, page : 175-176

[2] Ibid p. 189

[3] HARRINGTON wilfrid, Nouvelle introduction à la Bible, Op. Cit. p.134

كتبهم، فذكر شريعة موسى في أحد هذه المصادر وإن كان يثبت أن موسى كانت له شريعة فلا دليل فيه على أن هذه الشريعة هي ما تتضمنه كتب الأسفار الخمسة الحالية.

إن **مشكلة الكتاب المقدس** تتمثل في إثبات أن هذه التوراة الحالية بمجموع أسفارها هي لموسى υ أو لأحد الأنبياء، وهذا الأمر يحيلنا ضرورة على مطالبة اليهود والمسيحيين بإثبات سند كتبهم المقدسة وعمن أخذوها، وهو ما طلبه رحمة الله الهندي من علمائهم الفحول فما قدروا عليه[1].

ولنفرض جدلا أن مجرد ورود هذه الكتب يدل على صحتها، فلِمَ لَمْ يعترف المسيحيون بكتب أخرى وردت أيضا في المصادر نفسها كتلك المذكورة في مخطوط Clarmontanus، والمخطوط السينائي فكيف اعترف القانون ببعضها وأنكر البعض. إن هذا يجعلنا نتساءل هل عملية الانتقاء التي خضعت لها الكتب المقدسة بُنيت على معايير علمية دقيقة، أم أنها كانت عملية عشوائية أساسها الظن والتخمين **فتم قبول كتب ورفض أخرى دون اعتماد أي معيار؟**

إن المعيار الوحيد المشار إليه في المصادر المسيحية في هذه العملية الانتقائية هو "المصدرية الرسولية لهذه الكتب المبرهن عليها في التقاليد المسيحية، فتقبل دون نقاش كل الكتب المعترف لها بالنسبة الرسولية، كالأناجيل الأربعة ورسائل بولس، وترفض كل التي تدعي لنفسها هذه المصدرية وهي في الحقيقة كتابات متأخرة ومشكوك في صحتها كالأناجيل والرسائل الأبوكريفا. وقد تم في

[1] يقول رحمة الله الهندي: "مادام لم يأتوا بدليل شاف وسند متصل فمجرد المنع يكفينا وإيراد الدليل في ذمتهم لا في ذمتنا لكن على سبيل التبرع نتكلم في هذا الباب" إظهار الحق، مرجع سابق الجزء الأول ص: 110.

وقت متأخر مناقشة الكتب ذات المصدرية الرسولية غير الثابتة فتم قبول بشكل نهائي الرسالة إلى العبرانيين ورسالة يعقوب ورؤيا يوحنا وتم رفض رسالة برنابا ورؤيا بطرس"[1].

لكن المعيار المذكور لم يُحترم تطبيقه في انتقاء كتب القانون، **فلوقا ومرقس وحتى بولس ليسوا من الحواريين**، ومع ذلك قبلت الأناجيل والرسائل المنسوبة إليهم، **في حين تم رفض إنجيل برنابا ورسالته مع أنه بنص الأناجيل من زكى بولس** أو شاول، أمام الرسل حتى قبلوه بينهم[2]. بل أكثر من ذلك كيف تأكدت الكنيسة وهي تبث في انتقاء الكتب من أنَّ أصحاب هذه الكتب السبع والعشرين من رسل المسيح أو من أتباع رسله، فحملهم لأسماء شبيهة بأسماء الحواريين وأتباعهم لا يدل على أنهم بالفعل رسلا، فالأسماء اليهودية والمسيحية تتكرر بشكل كبير في العهد القديم والجديد، وتدل في كل مرة على أشخاص مختلفين، أمثال: ألعازار ويشوع وفيلبس فهذا الأخير ذكر في العهد الجديد أربعة مرات دل في كل مرة على شخص مختلف: فيلبس الرسول[3]، فيلبس بن هيرودس الكبير[4]، فيلبس زوج هيرودية[5]، فيلبس أحد الرجال السبعة الذين اختارتهم كنيسة أورشليم لمساعدة الرسل[6]. هذا وقد تم حذف بعض الأناجيل مع أنها منسوبة إلى حواريين، وليس للأناجيل القانونية أية ميزة عنها، وهذا ما جعل القسJean MESLIER يتساءل قائلا: "ما الميزة التي حظيت بها هذه الأناجيل الأربعة ومثيلها من الكتب الأخرى حتى تعتبر مقدسة وإلهية مع أن هناك كتبا أخرى أيضا تحمل اسم "الإنجيل" وتنسب أيضا إلى الحواريين؟

[1] Pierre de TARTAS, Bible de Jérusalem, introduction de Pierre BENOIT, Panagiostis BRATSIOTIS, George CASALIS, Rabbin André ZAOUI, Richard DUPUY, Paris édition ROMBALDI tome:1 page: 25

[2] أعمال الرسل 9:26-28

[3] متى3:10

[4] لوقا1:3

[5] متى 3:14

[6] أعمال الرسل5:6

فإن قيل أن الأناجيل المرفوضة نسبت خطأ للحواريين فالقول وارد أيضا بالنسبة للأناجيل الأربعة، وإذا اعتبرنا بعضها محرف ومزور فالأمر وارد أيضا بالنسبة للبعض الآخر، وبالتالي **ليست ثمة دليل مؤكد نميز به بين هؤلاء وهؤلاء**، وبالرغم من أن الكنيسة تريد فرض ذلك فالأمر غير مقبول"[1].

أضف إلى ذلك كله، **فسِيَر كل من تنسب إليهم هذه الكتب مجهولة**، ولا ندري من يكون متى أو مرقس أو لوقا أو يوحنا أو غيرهم، فلا مصدر صحيح أو سقيم يدلنا عليهم، وما ورد عنهم في العهد الجديد لا يعطينا معلومات كافية عنهم.

وعلى كل حال لننظر كيف فعل مجمع "ترنت" عند انتقائه للكتب القانونية، ولنتفحص قراراته علنا نستخلص المعايير التي اعتمدها لتحديد قائمة الكتب المقدسة، خاصة وهو آخر مجمع فصل بشكل نهائي في هذه القائمة، وكان انعقاده **رد فعل ضد الحركة البروتستانية التي أنكرت بعض الكتب الواردة في التوراة اللاتينية المعتمدة لدى الكنيسة**، ولم تعترف بغير الكتب اليهودية للعهد القديم.

لغات الكتاب المقدس

من أهم المشاكل التي يعاني منها الكتاب المقدس مشكل اللغة، فإذا كان القرآن نصَّ في كثير من آياته على عربية النص القرآني[2]، فلم ترد في مجموع أسفار العهدين القديم والجديد أية إشارة إلى اللغة التي كتبت بها هذه الأسفار، ولا إلى اللغة التي تحدث بها أنبياء بني إسرائيل، وكل ما ورد فهو إشارة إلى "اللغة" التي تحدث بها بنو إسرائيل وليس إلى لغة الكتاب، فقد جاء ذكر اليهودية في ثلاث مواضع من الكتاب المقدس، في سفر الملوك الثاني وسفر إشعيا[3]، وفي سفر نحميا[1]،

---

[1] Jean MESLIER Le bon sens du curé,Op. Cit. chapitre II. – Des miracles. p 287

[2] جاء التنصيص على عربية النص القرآني في القرآن في إحدى عشر موضعا

[3] سفر الملوك الثاني18:26-29 وورد نفس النص في إشعيا36:11-13

ووردت لغة "كنعان" في سفر إشعيا[2]، والفقرات الثلاث التي ذكرت فيها اليهودية لم تسبق بكلمة "لغة" عكس الآرامية والكنعانية ولغة أشدود اللاتي سبقن بكلمة "لغة"، مما يدل على أن محرر هذه الفقرات كان يعلم أن اليهود لم تكن لهم لغة محددة وإنما لهجة هي خليط من لغات مختلفة[3].

فدعوى عبرية النص الأصلي للتوراة، تبقى مجردة من أي دليل نَقلي، وتبقى بالتالي **لغة هذا الكتاب ولغة أصحابه مجهولة**، فلا دليل على أن اللغة العبرية المعروفة الآن هي اللهجة المسماة يهودية في النصوص التوراتية المذكورة، فهذه الأخيرة أشارت إلى أن بني إسرائيل تكلموا اليهودية وليس العبرية، ونص التوراة الحالي مكتوب بالعبرية مما يدل على أن هذا النص الحالي هو **ترجمة عبرية للنص اليهودي**، ولقد رجح "سيجموند فرويد"[4] أن لغة التوراة هي لغة مصر الهيروغليفية، بدعوى أن موسى عاش في القصر الفرعوني، وتربى بين أحضان أهله مدة أربعين سنة.

والمعروف أن العبرية لم تتبلور وتصبح لغة مكتوبة إلا حوالي القرن الثاني قبل الميلاد[5]، وقد تم العثور على أربعة رسائل عبرية يرجع تاريخها إلى زمن ثورة اليهود الثانية حوالي (132-125 ق.م) تعتبر شاهدا على هذه العبرية[6].

ولقد عانى علماء المسيحية، ونقاد الكتاب المقدس من هذا المشكل اللغوي كثيرا، فقد أدى غياب النص الأصلي إلى عدم الاطمئنان إلى الترجمات المختلفة التي يعرفها الكتاب المقدس، حتى

---

[1] سفر نحميا13:24

[2] إشعيا 18:19.

[3] أ.عبد العزيز بن عبد الله، د.محمد المختار ولد أباه، د.أحمد شحلان، د. عبد العزيز شهبر، د.هبة نايل بركات؛ لغات الرسل وأصول الرسالات موسى- عيسى- محمد عليهم الصلاة والسلام. الرباط، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة- إيسيسكو 1423هـ/2002م ص:49.

[4] Sigmund Freud, Moïse et le monothéisme, traduit de l'allemand par Anne Berman, Paris, Gallimard, 1948.

[5] Wilfrid Harrington, Nouvelle introduction à la Bible, p.125

[6] La grande encyclopédie Larousse, tome : 8 p.1690.

أكثرها دقة وأكثرها خضوعا للمناهج النقدية، ونلمس عدم الاطمئنان هذا عند Richard SIMON حيث يقول: "وبما أن الكتب المقدسة وُكِّلَ أمرها إلى الإنسان، **في وقت ضاع فيه أصلها**، فمن المستحيل ألا تتعرض بطريقة أو بأخرى، للتغييرات إما بفعل الزمن أو إهمال النساخ"[1] ونلمس نفس الأمر عند Wilfrid Harrington، فقبل حديثه عن لغات الكتاب المقدس يقول: "لنا اليوم اليقين أن أية ترجمة أعدها العلماء المؤهلون للكتاب المقدس، فهي تعكس بأمانة اللغات التي كتبت بها التوراة. لكن ثمة حاجز لا يمكن تجاوزه، يعترض أدق الترجمات وأكثرها أمانة، ذلك أننا **لا نتوفر على نص أصلي** يمكن اللجوء والاطمئنان إليه، بل لا نتوفر ولو على جزء صغير للمخطوط الأول لأي سفر من أسفار الكتاب المقدس"[2].

ومع أن Wilfrid Harrington يعي تماما مخاطر هذا المشكل الذي يعاني منه النص الديني المسيحي، نجده ككل كاثوليكي[3] يخضع لقيود الكنيسة ويتقي شرها، يستدرك قوله الفارط مؤكدا على أن هذا المشكل لا يمنعنا من الثقة في الطبعات النقدية للكتاب المقدس والترجمات المعدة عليها، وأن نعتقد على أنها كلمة الله الصحيحة[4]، مع أنه يعلم مكانة اللغة المتداولة في تحديد معاني معاني النصوص، وكذا في كل العلوم الفلسفية والأدبية والدينية، وهو تكريس لموقف آخر من المواقف غير العلمية التي تتخذها الكنيسة بشأن العقائد والكتب الدينية، حيث تدعي فتح المجال أمام

---

[1] Richard SIMON, Histoire critique du vieux testament Rotterdam 1685, Frankfurt 1967, Livre 1er, chapitre1er, p.1

[2] Wilfrid Harrington, Nouvelle introduction à la Bible, Op. Cit. p.125

[3] يقف Richard SIMON موقف الحيطة من سخط الكنيسة، لأجل ذلك عمل في مقدمة الفصل الأول من الكتاب الأول على إرضاء الكنيسة مصرحا "أن لا أحد من اليهود أو المسيحيين إلا ويعترف أن الكتاب المقدس كلمة الله الخالصة".

Richard SIMON, Histoire critique du vieux testament Op. Cit.p.1

[4] Wilfrid Harrington, Nouvelle introduction à la Bible, Op. Cit. p.125

البحوث العلمية والنقدية، وفي نفس الوقت تضع قيودا تغل بها يد الباحث وتشترط لقبول نتائج البحوث **موافقة العقائد التي تقرها الكنيسة**[1].

إن الجهل بلغة الكتاب وفقد أصله الأولِ، يجعل الدين اليهودي والمسيحي اللذين ينبنيان عليه محلا للكثير من التساؤل، خاصة في الجانب العقدي الذي لا يمكن أن يتأسس إلا على **نص قطعي الثبوت**؛ وفقد الأصل والجهل بلغته يجعل **الكتاب المقدس ظني الثبوت**، أضف إلى ذلك تعدد الترجمات والنسخ ومناقضة بعضها البعض.

في ظل هذه الظروف غدا تطبيق المنهج الفيلولوجي والتاريخي على نص الكتاب المقدس ضرورة لا غنى عنها، فقد بدا أن لغة تحريره ليست أصلية وإنما خليط من لغات عديدة ليست المصرية والكنعانية وحسب، وإنما الآرامية والسريانية وغيرها[2]، ومن تم لابد من معرفة هذه اللغات وتاريخها وزمن تحرير أسفار الكتاب المقدس بها، خاصة وأن **زمن التحرير يبعد عن زمن التنزيل**.

بهذا يجد الباحث نفسه، بسبب غياب النص الأصلي للكتاب المقدس، أمام ترجمات عديدة لكتب العهدين القديم والجديد، لا يمكن حصرها بحال. فقد كان دعاة الكتاب المقدس، بدعوى التبشير برسالة عيسى υ في كل الأمم تنفيذا لأمره الصادر في إنجيل متى[3]، يلجأون إلى ترجمة ما بين أيديهم من الكتب إلى لغات الأمم التي يبشرون فيها، ولعل النص الوارد في الإنجيل[4]

---

[1]Wilfrid Harrington, Nouvelle introduction à la Bible p.161

[2] من أسفار العهد القديم المكتوبة بالآرامية فصلين من سفر عزرا المكتوب حوالي 300ق.م، ونصف سفر دانيال المكتوب حوالي165ق.م. ومن الأسفار المكتوبة بالإغريقية سفر الحكمة وسفر المكابين الثاني وهما من أسفار الأبوكريفا التي لا تعترف بها اليهود والبروتستانت.

La grande encyclopédie Larousse, Tome 8, page : 1690

[3] متّى28:19 سبق وأن بينت في مقال صدر بمجلة Demain بتاريخ أكتوبر 2000 تحت عنوان:

Universalité des religions le christianisme est-il catholique ou prétention du catholicisme ?

أن ادعاء النصارى على أن المسيحية رسالة عالمية لا يقوم على أساس من الإنجيل نفسه.

[4] مرقس16:17، كورنيثوس الأولى12:28.

الذي يشير إلى أن الرسل الإثنى عشر أُعطوا كل لغات العالم فيه دلالة على ترجمة النص الذي بين أيديهم إلى هذه اللغات، وقد تعرض Richard SIMON إلى العديد منها فتحدث بخصوص العهد القديم عن الترجمة العبرية والإغريقية واللاتينية وبخصوص العهد الجديد تحدث عن كثير من الترجمات السريانية والقبطية والحبشية والعربية وغيرها.

هذا بالإضافة إلى فقد مخطوط يضم مجموع الأسفار القانونية بل بالعكس كثيرا ما ضمت هذه المخطوطات **أسفارا لا تعترف الكنيسة بها إلى اليوم** مما يُسقط الاحتجاج بها، ومع أن هذه المخطوطات لا تشهد إلا على **جزء من أسفار الكتاب فهي حديثة بالمقارنة مع الزمن الذي عاش فيه من تنسب إليهم**، والمسيحيون معترفون أنها **لا تمثل النص الإلهي المنزل من رب العالمين**، وذلك لما تعرفه من أخطاء وإضافات وتشطيبات جعلت النص الأصلي يتبدل يوما بعد يوم، وإنما يرون أهميتها في كونها تمثل المادة الخام القابلة لأن **تُصفى وتُنقى وتُصنَّع ويُستخرج منها النص الأصلي**، وذلك لما توفره المناهج النقدية الحديثة، وقد أعلن Harrington صراحة **أن النص التوراتي الذي تؤمن به اليهود والنصارى ليس النص الإلهي الحقيقي** وإنما نص قريب منه لما قال:" إنه لمن السابق لأوانه الحديث عن بناء نص العهد الجديد وزَعْم أنه يمثل بشكل كبير النص الأصلي. لكن هذا لا يعني عدم الثقة في النص الذي **تم إنشاؤه** اعتمادا على المناهج النقدية، حيث نتوفر على أزيد من مائة وخمسين ألف مخطوطة للعهد الجديد أغلبها ذات اختلافات يسيرة لا قيمة لها فهي مجرد تغييرات نحوية أو أخطاء بديهية للنساخ، ويتفق العلماء المحصلون على أن تسعة أعشار النص قد تم إعدادها بكل تأكيد وأن **الاختلافات الهامة** قليلة جدا"[1]، وتكفي خلاصة Harrington هاته في بيان أن المسيحيين إلى اليوم لا يتوفرون إلا على **تسعة أعشار** الوحي بغض النظر عن مدى مصداقية هذا الادعاء فلا دليل مؤكد على أن الأبحاث التي ادعت المصداقية لهذه التسعة ستبقى في كلمتها أم أنها ستتغير مع تقدم نفس هذه الأبحاث، وباعترافهم هذا يكون

[1] Wilfrid HARRINGTON, Nouvelle introduction à la Bible, Op. Cit. p.138.

كتابهم المقدس الذي يدعون أنه كلمة الله ووحيه ليس كذلك لأن **عشره ليس من عند الله**، وبما أن هذا العشر غير محدد أهو الأول من الكتاب أم الثاني أم غير ذلك **فالاحتمال وارد على مجموع النص.**

لكن للأسف حتى دعواهم هاته غير صحيحة فرغم تطور هذه المناهج العلمية واكتشاف الكثير من الأخطاء الناتجة عن النسخ وسوء الفهم فالنص لا يزال كما رسخه مجمع "ترنت" وحكم باللعنة عن كل من لم يعترف بجزء منه، ولو كان زعمهم صحيحا لكان لزاما على الكنيسة أن تعقد بعد كل إعلان جديد لنتائج الدراسات النقدية بخصوص الكتب المقدسة، مجمعا تنظر فيه إلى مدى مصداقية هذه النتائج وتعتمد رسميا ما ثبتت صحته وتحذف من كتبها ما ثبت خطؤه وبطلانه ولو كان من الكتب القانونية.

المبحث الثاني: القرآن الكريم لغة القرآن ومراحل تدوينه

رأينا فيما سبق معنا من مباحث أن من أكبر المشاكل التي يعاني منها النص المسيحي بعهديه القديم والجديد مشكل اللغة والتدوين، بالإضافة إلى الجهل المحيط بجميع كُتاب أسفار الكتاب المقدس إذ لا يوجد من بين من تنسب إليهم أسفار الكتاب المقدس من يُعرف حالُه أو أصله، وأن هذا الجهل العام المحيط بهذه النصوص وبأصحابها، عسَّر فهم مضمونها واستخلاص معانيها وأحكامها، وجعل أتباعها والمؤمنين بها تائهين متخبطين لعدة قرون، تتقاذفهم النصوص المختلفة المنتشرة هنا وهناك بين الفرق والمذاهب، لدرجة أن لكل فرقة كتابها المقدس، تؤمن فيه بمجموعة من الكتب لا تؤمن بها الفرق الأخرى، فاليهود السامرة مثلا لا يؤمنون إلا بستة أسفار مكتوبة بلغتها السامرية هي: أسفار موسى الخمسة وسفر يشوع، والمسيحيون الكاثوليك يؤمنون بسبعة أسفار في العهد القديم لا يؤمن بها اليهود ولا المسيحيون البروتستانت، مما اضطر الباحثين

المسيحيين -في سبيل سبر أغوار هذه النصوص المقدسة- إلى سلوك مناهج نقدية عديدة منذ عصر النهضة، كانت لها نتائج إيجابية نسبيا.

ويربط بعض المفكرين ما عرفه الغرب على المستوى الاقتصادي والصناعي بالنهضة الفكرية التي عرفتها أوروبا والتي قامت أساسا على الدعوة إلى نقد الفكر الديني ومناهضة الخرافات التي كرستها الكنيسة والتحرر من قبضة هذه الأخيرة.

ولا يسعنا إلا أن نوافق هؤلاء المفكرين في كون **الدين المسيحي** بعقائده وشعائره ومؤسساته، كان عائقا أمام التقدم العلمي، وأن يوم تحرر الفكر الغربي من سيطرة الكنيسة المسيحية، عرف نور العلم طريقه إلى عقول الغربيين، لكن ما يجب لفت النظر إليه أن الدين الذي كان وراء تخلف أوروبا هو **الدين المسيحي**، وأن الدعوة التي يدعو إليها بعض المسلمين إلى نقد فكرهم الإسلامي ونصهم القرآني والحديثي، للوصول إلى ما وصل إليه الغرب وتحقيق ما حققه من تقدم علمي وصناعي هي دعوة غير علمية، لأن الحضارة الإسلامية عرفت قرونا طويلة من التقدم والازدهار دون أن تتخلى عن دينها الإسلامي، وفي نفس الوقت نشير إلى أن القرآن لا يخاف من النقد بل هو نفسه نص نقدي بامتياز، أقام أسسه وقدم بدائله العقائدية والتشريعية والأخلاقية من خلال نقده للعقائد والتشريعات السابقة، وإبراز ما تعرضت له من تغييرات نتيجة الفعل الإنساني والزمني، جعلتها تفقد تلك الصفة الإلهية التي تتميز بها عن سائر النصوص البشرية، وفي نفس الوقت بقي القرآن كتابا مفتوحا يدعو قارئيه لتدبره بل ويتحداهم بصفته الإلهية الخالدة التي لا تقبل التغيير ولا تخضع له، والتي تعتبر صفة إلهية تجعله بما تضمن من الآيات الكونية والإنسانية والواقعية الخالدة فوق كل شبهة.

وقد حاول الكثيرون منذ نزول أول آية قرآنية التصدي لهذا الكتاب، متهمين النبيε بالسحر والكهانة والشعر، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، وتمكن القرآن من فرض نفسه كنص ديني وأخلاقي متميز.

و لما يزيد عن عشرة قرون استمرت الهجمات الموجهة إلى النص القرآني التي أطلقها أعداء الإسلام والذين ساقوا فيها أكاذيب وافتراءات لا تحصى ولا تعد، وكان موضوع القرآن وسيرة النبي ε هدفا لهم، خاصة بعد انتشار الإسلام على حساب الإمبراطورية البيزنطية، ومن أشهر هؤلاء يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قرة... وغيرهما.

واستمرت الهجمات على الإسلام من أوروبا هذه المرة على يد من ادعوا أنهم علماؤها ومفكروها ومؤرخوها، مع أنه لم يكن لأي منهم الشجاعة في تحري المعرفة الحقة والموضوعية عن الإسلام ومؤسسه، بل كانت كل نظرياتهم وآرائهم تحكمها الأحكام المسبقة المتأصلة وتحزبهم الطاغي ضد الإسلام والمسلمين، "وقد شهد رينان على تحامل أبناء جنسه وملته من المستشرقين على محمد، يقول رينان: "لقد كتب المسيحيون تاريخا غريبا عن محمد... إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمدا كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له، ولقد وصمه "دانتي" بالإلحاد في رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد عنده، وعند غيره مرادفا لكلمة كافر أو زنديق، ولقد كان محمد في نظر كتاب العصور الوسطى تارة ساحرا وتارة أخرى فاجرا شنيعا ولصا يسرق الإبل، وكاردينالا لم يفلح في أن يصبح بابا فاخترع دينا جديدا أسماه الإسلام لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزا لكل الموبقات وموضوعا لكل الحكايات الفظيعة"[1].

[1] إرنست رينان، دراسات في التاريخ الديني، باريس 1859، نقلا عن عبد الرحمان بدوي،دفاع عن محمد ε ضد المنتقصين من قدره، ترجمة كمال جاد الله، القاهرة الدار العالمية للكتب والنشر، 1999م، نافذة على الغرب (2)، ص: 5-6

فقد حاولوا التشكيك في أمية النبي ε وفي ربطه لعلاقات مع اليهود والنصارى، بل منهم من اعتبره قسا من قساوسة النصارى[1] وحاولوا التشكيك في القرآن معتبرين أنه مقتبس من التوراة والإنجيل[2].

وقد تبع هؤلاء المستشرقين كثير من المسلمين الذين تأثروا بأفكارهم وآرائهم، تحت ضغط واقع المجتمعات الإسلامية المتخلف والمتردي، والذي أصبح فيه القرآن على الخصوص مركونا على الرف، لا يقرأ إلا للتعبد والصلاة وليس للتعلم والفهم والتدبر، وحل محله الموروث الثقافي للمسلمين الذي اتخذ صفة القدسية وصفة الحق، فحجب هذا الموروث الثقافي البشري عن المسلمين نور القرآن الإلهي، واعتقد هؤلاء أن القرآن وثقافة الأمة شيء واحد كان وراء تخلف المسلمين، ومن تم لا بد لنقض هذا الموروث الثقافي من نقض النص القرآني نفسه، وذلك من خلال عرض تلك الإشكالات التي رافقت نزول القرآن أو تدوينه أو جمعه، وإن كانت هذه الإشكالات في حقيقتها ما هي إلا تكرار لتلك التي تعرض لها القرآن نفسه، والتي أوردها على لسان المشركين أو اليهود أو النصارى كقوله تعالى: { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) [3]، وقوله: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ

---

[1] من الكتب الصادرة في السنين الأخيرة التي تكرس نفس الرؤية الحقودة على الإسلام ونبيه نذكر كتاب "قس ونبي" لصاحبه أبي موسى الحريري، الذي رد عنه شريف محمد هاشم، في كتابه الإسلام والمسيحية في الميزان، بيروت مؤسسة الوفاء الطبعة الأولى 1988م، واسم أبي موسى الحريري الصحيح هو جوزيف عزي وقد ترجم كتابه إلى الفرنسية:

Joseph Azzi, Le prêtre et le Prophète Aux sources du Coran, traduit de l'arabe par Maurice S. Garnier Paris, Maisonneuve et Larose, 2001.

"كتاب القرآن والمسيحية" لصاحبه الحداد، وقد رد عنه أحمد عمران الزاوي في كتابه "القرآن والمسيحية في الميزان"، تقديم سماحة آية الله السيد محمد حسين فضل الله، بيروت الدار العلمية، الطبعة الأولى 1416هـ-1995م وكذلك رد عبد الرحمن بدوي، "دفاع عن محمدε.." المذكور وأيضا في كتابه "الدفاع عن القرآن ضد منتقديه"، القاهرة الناشر مدبولي الصغير، الطبعة الأولى 1998م.

[2]

[3] سورة النحل، آية: 103

الْمُبْطِلُونَ) [1] ، فالآيتين تعرضتا لإشكاليتين لا يزال المستشرقون إلى اليوم يرددونهما وهما: أمية الرسول واقتباس القرآن من الكتب السابقة.

إن القرآن يتميز عن باقي الكتب السماوية السابقة من حيث الموضوع والبنية والتشكل واللغة والتدوين، وبالتالي فكل دعوة إلى تطبيق مناهج النقد الحديثة على القرآن تأسيا بما طبق على الكتاب المقدس دعوة إسقاطية غير علمية، لأنها قياس مع وجود الفارق، فالقرآن عكس الكتاب المقدس **معلوم اللغة ثابت السند، دوِّن منذ أول يوم نزل فيه على النبي ε متلو آناء الليل والنهار في الصلاة وفي رمضان وغيره.**

من المعلوم أن لا أحد يمكنه التشكيك في أن لغة القرآن هي اللغة العربية، ويكفي أن القرآن تعرض للغة التي كتب بها صراحة في إحدى عشرة موضعا، وهو الأمر الذي يفتقد إليه الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، فليس فيهما – على كثرة نصوصهما ورواياتهما- إشارة واحدة للغة التي كتب بها سفر من أسفارهما، وكل اللغات التي كتب بها الكتاب المقدس هي ترجمات لنص مفقود لا يعلم أحد ما هي لغته، وقد أشرنا إلى هذه اللغات وإلى هذه الترجمات في ما سبق من مباحث هذا العمل، وبينا أن اللغة مع ما لها من أهمية في فهم النصوص واستنباط الأحكام تبقى مجهولة بالنسبة للكتاب المقدس بعهديه.

أما القرآن فقد تميز بهذه الميزة الإلهية، التي تعتبر معجزة من معجزاته الخالدة التي تحدى بها سائر الكتب السماوية السابقة، فلم تعد معجزة القرآن اللغوية مقتصرة في بلاغته وفصاحته كما فهم ذلك المسلمون الأوائل، وإنما معجزته أيضا تكمن في **تفرده بثبوت لغته،** فكانت اللغة العربية المعلومة وسيلة من وسائل الحفظ التي حفظ الله بها هذا الذكر الحكيم خلافا لكل الكتب الأخرى.

[1] سورة العنكبوت، آية 48

ومع أن القرآن عرف عدة ترجمات إلى لغات عديدة — لا ننكر أن بعضها لم تكن أمينة إما عن قصد أو غير قصد- لكن ذلك لم يؤثر في صحة النص القرآني، لوجود الأصل الذي يمكن الرجوع إليه متى اقتضى الأمر ذلك، أما الكتاب المقدس الحالي فيبقى نصا ظنيا لا نعرف مدى مصداقيته لأنه مجرد ترجمة، ومهما كانت دقة الترجمة وأمانتها فلن تنقل المعاني الحقيقية للنص الأصلي، كما أنها تبقى خاضعة لشخصية المترجم وعقيدته ومذهبه.

وإذا تميز القرآن **بثبوت لغته العربية**، فقد تميز أيضا بطريقة تدوينه، إذ كان **توثيقه آنيا يحدث في توه وبمجرد نزوله على النبيε**، خلافا للكتب السماوية السابقة التي **لم تعرف طريقها إلى التدوين إلا بعد مرور عدة قرون من تاريخ نزولها**.

وقد كان النبيε واعيا بقيمة الكتابة ودورها في حفظ النصوص، فمع أنهε كان أميا لا يقرأ ولا يكتب {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} [1]، نجده يهتم بالكتابة وأدواتها ووسائلها بالغ الاهتمام، ويرى فيها وسيلة من وسائل نشر الدعوة الإسلامية فقد كانυ وهو "في أحلك الظروف وأخطر اللحظات من حياته التي تمثل نقطة الانعطاف في مسيرة الدعوة الإسلامية، ألا وهي لحظة الخروج من بيته مهاجرا إلى المدينة، وقد أحاط المشركون ببيته لينالوا منه، واستمرت مطاردتهم له، وأعلنوا عن مكافئة كبيرة لكل من يأتي به حيا أو ميتا، مع كل هذه المخاطر نجدهε يحمل معه ضمن الأشياء القليلة التي حملها معه إلى المدينة كامل أدوات الكتابة، ونجد أن بعض كتاب الوحي بقوا ملازمين له وملتفين حوله لتسجيل كل آية توحى إليه، فنجد أن كلا صاحبيهε

[1] سورة العنكبوت، آية 48

في الهجرة أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة كانا من الكتبة المعروفين ويدل على ذلك قصة كتاب الأمان لسراقة بن مالك بن جعشم"[1].

ويتجلى اهتمام النبيε البالغ بالكتابة وحرصه على محو الأمية بين صفوف المسلمين أن أخذ في نشر القراءة والكتابة بين أصحابه، حتى إنه كان يأخذ في فداء الأسير مبلغا من المال، فإذا لم يكن له مال وكان يحسن القراءة والكتابة، جعل فداءه تعليم عشرة من غلمان المدينة، وبهذا انتشرت القراءة والكتابة بين المسلمين، ثم جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ونوه بشأن العلم، كما روي عنهε أنه قال: "إذا كتب أحدكم كتابا فليتربه فإنه مبارك وهو أنجح لحاجته"[2].

واهتمام الرسولε بالكتابة نابع من القرآن الكريم الذي أشار في كثير من آياته إلى عملية الكتابة والقراءة، بالإضافة إلى التنصيص على أن القرآن كتاب منزل من عند اللهY، يقول تعالى: { وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ)[3]، ولما كان القرآن أهم كتاب عرفته البشرية فقد كان حرصهε على كتابته كبيرا، منذ أول يوم نزل فيه، ونهىυ أن يكتب عنه شيء غير القرآن مخافة أن يختلط كلامه العادي بكلام الله المنزل، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِε قَالَ: لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا إِلاَّ الْقُرْآنَ فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ."[4].

ولم تختلف كتابة النص القرآني من حيث الحرص النبوي عليها بين مكة والمدينة، فقد أولى ε نفس الاهتمام والحرص بكتابة القرآن حتى في أصعب الظروف، وفي قصة سراقة التي أشرنا إليها

---

[1] عبد الرحمان عمر محمد اسبينداري، كتابة القرآن الكريم في العهد المكي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو 1423هـ-2002م، ص:97

[2] سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي مراجعة أحمد محمد شاكر وآخرون، الجزء الخامس ص:66، رقم الحديث: 22576.

[3] سورة الطور، الآيات: 1-3

[4] رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم - صحيح مسلم مع شرح النووي (129/18) ح 3004، والدارمي في الْمقدمة.باب من لم ير كتابة الحديث (119/1) ح 450 .

من قبل أكبر دليل على أن كتابة القرآن كانت مستمرة في الفترات العصيبة كما في الفترات الآمنة المطمئنة، أما دعوى أن كتابة القرآن بمكة لم تكن بالضبط والحرص الذي كانت عليهما بالمدينة فدعوى لا أساس لها من الصحة، لأن الآيات القرآنية المكية التي تشير إلى عملية الكتابة يبلغ عددها 154 من مجموع 319، بل إن هناك شواهد مؤكدة على أن كتابة القرآن ابتدأت منذ العصر المكي منها قصة إسلام عمر رضي الله عنه التي تدل على أن القرآن كان يكتب في العهد المكي، فقد نقل ابن إسحاق ذلك فقال: "وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد وهما مستخفيان إسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام –رجل من قومه من بني عدي بن كعب– قد أسلم وكان أيضا يستخفي إسلامه خوفا من قومه وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله ε ورهطا من أصحابه ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين م بين رجال ونساء، ومع رسول الله ε عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله ε بمكة ولم يخرج فيمن خرجوا إلى أرض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها(...) فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه –زوج أخته–، وعندهما خباب بن الأرت معه **صحيفة فيها طه يقرئهما إياها** (...) وقال لأخته أعطيني هذه **الصحيفة** التي سمعتكم تقرؤون آنفا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد (...) **فأعطته الصحيفة وفيه طه** فقرأها فلما قرأ منها سطرا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه (...)[1]".

[1] ابن هشام محمد عبد الملك، "السيرة النبوية"، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، 1955م، الجزء الأول ص: 365-367

فكانت كتابة القرآن من وسائل الحفظ التي يسرها الله لهذا الكتاب دون غيره من الكتب، ومن الأمور التي ساعدت على حفظ النص القرآني بمكة بالإضافة إلى الكتابة أمور موضوعية[1] وهي:

1- أهمية الحدث وعظمته. وتحديه للخصوم بالإتيان بمثله بجانب الحكم عليهم سلفا بالعجز.

2- جعل الشارع تلاوة النص عبادة وحض على ذلك. وكون القرآن مصدر للفكر والدعوة، فكان محلا للدراسة والتدبر لا يُستغنى عنه وحضوره القوي في عملية الجدال والحوار.

3- وجود الرسول نفسه حامل الرسالة والذي يقوم بتلاوتها وإبلاغها للناس بشكل مستمر.

4- نزول القرآن مفرقا خلال مدة زمنية طويلة. وارتباطه غالبا بالأحداث.

أما في المدينة فقد زاد عدد كتبة الوحي، فبالإضافة إلى أولئك الذين عرفوا بمكة، كان هناك كتاب آخرون بلغ مجموع عددهم أزيد من أربعين كاتبا.

ولم تكن كتابة القرآن تنحصر على هؤلاء الكتاب المختصين، بل كان كثير من المسلمين يكتبون لأنفسهم نصوصا من القرآن أو كل ما ينزل من الوحي تباعا لتكون عندهم نسخة خاصة بهم.

وقد أكثر النبي ε من عدد هؤلاء الكتبة ليضمن أنه سيجد في كل لحظة ينزل عليه فيها الوحي كاتبا يكتب له ما يوحى إليه، فكان إذا أنزلت عليه الآية أو الآيات دعا بعض كُتَّابه، فأملى عليه ما نزل، فكتب بين يديه، وكان يأمرهم بوضع الآيات في مواضعها الْمخصوصة من سورها.

[1] سامر إسلامبولي، ظاهرة النص القرآني..، مرجع سابق، ص: 17-18

فعَنْ عُثْمَانَ بن عَفَّانَ، قال: كَانَ النَّبِيُّε مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّوَرِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ فَكَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ لَهُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا."[1]، وفي نص الحديث دليل على أن النبيε كان يحتفظ بأصل النسخة التي يُكتب فيها القرآن، وإلا لما تمكن الكاتب من وضع السورة أو الآية في مكانها لو كان كل كاتب يأخذ معه ما كتب.

واستمر توثيق النص القرآني كتابة وحفظا إلى أن تم اكتمال نزول النص القرآني، وتوفى رسول الله ε بعد ذلك تاركا وراءه النص القرآني مكتوبا بشكل كامل على الرقاع في بيته، مع وجود عدة نسخ للنص القرآني مكتوبة بشكل كامل عند مجموعة من الصحابة، غير الكتابة المتفرقة للنص في مجموع مجتمع الصحابة.

ولننظر الآن إلى مصير القرآن بعد وفاته ε، وماذا فعل صحابته رضوان الله عليهم؟ وكيف تعاملوا مع القرآن من بعده؟

تميزت مرحلة أبي بكر الصديق بعملية نقل النص القرآني من الرقاع التي كتب عليها في عهد النبي ε إلى الصحف، وكان السبب في ذلك ما عرفته حروب الردة من استشهاد كثير من الصحابة الحفظة، فقد نبهه إلى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقترح على أبي بكر بأن يقوم بجمع النصوص القرآنية في مصحف خشية ضياعه من أثر موت الحفظة، قال الزُّهْرِيُّ: أَخْبَرَنِي ابْنُ السَّبَّاقِ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّτ، وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ، قال: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، إِلاَّ أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لأَرَى أَنْ

[1] رواه أحمد في مسنده – مسند العشرة الْمبشرين بالجنة (92/1)ح 401، (111/1) ح 501، وأبو داود في كتاب الصلاة باب من جهر بها (208/1–209)ح 786، والترمذي في كتاب تفسير القرآن باب سورة التوبة (272/5) ح 3086.

تَجْمَعَ الْقُرْآنَ. قال: أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ لِعُمَرَ كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِρ؟ فَقَال: عُمَرُ هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ. قال زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ. فَقَال أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ وَلاَ نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِρ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ. فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّρ؟ فَقَال أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) إِلَى آخِرِهِمَا. وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ"[1].

وتجدر الإشارة إلى أن الأمر في هذا الحديث لا يتعلق بجمع أول للقرآن، فقد رأينا أن النبي ε كان يحتفظ بمجموع القرآن الذي كان الكتبة يكتبونه عنده في بيته في كل مرة ينزل عليه الوحي، هذا بالإضافة إلى أن الصحابة الآخرين كانوا يحتفظون بنسخ لمجموع القرآن لهم بصفة شخصية كما نستشف ذلك من خلال الحديث المروي عن أنس بن مالك الذي رواه البخاري والذي قال فيه: "مَاتَ النَّبِيُّρ وَلَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ قَالَ وَنَحْنُ وَرِثْنَاهُ"[2]

---

1 رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن باب (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ...) انظر الصحيح مع شرحه فتح الباري (194/8) ح 4679، وفي كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن، (626/8) ح 4986.

2 رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبيε ح 5004 (663/8). وقد صرح أنس في هذه الرواية بصيغة الحصر، قال الحافظ: وقد استنكره جماعة من الأئمة.(يعني التصريح)، انظر فتح الباري (668/8).

والجمع هنا لا يعني الحفظ لأن الحفظ كان متيسرا لعدد كبير من الصحابة منهم الخلفاء الأربعة ثم إن قول أنس "ونحن ورثناه" يدل على أن الأمر يتعلق بشيء مادي ملموس، والحفظ في الصدور ليس كذلك.

فالعملية على عهد أبي بكر اقتصرت على جمع ما كان مكتوبا على الرقاع والألواح والأكتاف والعسب ونقله إلى الصحف اعتمادا على المحفوظ بالصدور، وهي عملية دقيقة ومضبوطة، لأن زيدا وإن كان من الحفظة وممن يتوفر على نسخته الخاصة، فلم يعتمد على ما يتوفر عليه بصفة شخصية لأن نسخته الخاصة ليس لها مصداقية منفردة، فأخذ يطوف على الصحابة ويجمع القرآن من الصدور سماعا ومن الرقاع، ويقارنه بحفظه ونسخته ونسخ من تمكنوا من جمع القرآن كتابة على عهد النبي ε حتى أتم عمله، أما قوله "حتى وجدت آيتين.." فالمقصود به لم يجدها مكتوبة عند أحد ممن لم يتمكنوا من جمع القرآن كتابة على عهد النبي ε وإنما تمكنوا من كتابة بعض الآيات فقط، أما العلم بهاتين الآيتين وحفظهما فمتواتر بين الصحابة وما زال الكثير منهم على قيد الحياة وعلى رأسهم زيد نفسه والخلفاء الأربعة وباقي كتبة الوحي[1].

لقد كتب القرآن الكريم تحت رعاية الرسول ρ وعنايته، ويوضح الأستاذ حميد الله في مقدمة ترجمته للقرآن الشروط التي كتبت في ضوئها النصوص القرآنية حتى وفاة الرسول ρ فيقول: "اتفقت المصادر على القول بأن الرسول ρ كان كل ما أوحي إليه بآيات من القرآن يستدعي أحد أصحابه العارفين بالكتابة، فيمليها عليه محددا له موضعها بالنسبة للمجموعة التي سبقتها، ثم يطلب منه بعد إثباتها أن يعيد تلاوة ما أملاه عليه ليصحح الخطأ فيما لو وقع... وهناك رواية مشهورة تفيد بأن الرسول ρ كان يعرض القرآن مع جبريل υ كل سنة في رمضان... حتى أنه في رمضان الذي سبق وفاته عرضه مع جبريل مرتين... وقد اعتاد المسلمون في عصر النبي ρ قيام شهر رمضان بأداء

---

[1] سامر إسلامبولي، ظاهرة النص القرآني..، مرجع سابق، ص: 29-30

النوافل من الصلاة وقراءة القرآن بكامله فيها."[1] ويقول موريس بوكاي: "إن القرآن هو نص الوحي المنزل على محمد ρ من سيد الملائكة جبريل لأنه قد كُتب في الحال. ثم حفظه المؤمنون على ظهر قلب، وكانوا يرددونه أثناء صلواتهم، وبخاصة طيلة شهر رمضان. وقد رتب محمد ρ آياته في سور، جمعت مباشرة عقب وفاته، وألفت في عهد الخليفة عثمان (23-35هـ) الكتاب الذي هو بين أيدينا اليوم وخلافا لما جرى في الإسلام، فإن الوحي المسيحي انبنى على شهادات إنسانية متعددة وغير مباشرة، لأننا لا نملك أي شهادة من شاهد عاين حياة المسيح، خلافا لما يتصوره كثير من المسيحيين"[2].

لقد تمت كتابة القرآن في عناية من الدقة والحرص منذ العهد النبوي، فكانت هذه العملية من أخص خصوصيات القرآن إذ لم يعرف نص ديني من قبل مثل هذا الضبط.

المبحث الثاني: القراءات القرآنية

آثرنا الحديث عن موضوع القراءات لما له من أهمية كبرى في زمننا الحاضر، فهو من القضايا الشائكة التي مافتئ أعداء الإسلام يلجأون إليها للطعن في كتاب الله العزيز، فقد حاول المستشرقون دائما أن يثبتوا أن القرآن من وضع البشر، وبخاصة تأليف محمدρ، وموقفهم هذا من القرآن ليس بشيء جديد، بل هو في الحقيقة لا يختلف عن موقف مشركي مكة الذين بلّغهم الرسول رسالته والوحي القرآني مباشرة. فكانوا قد زعموا أن القرآن ما هو إلا قول البشر، أو أنّ صاحبهم "الأمين"

[1] حميد الله، ترجمة معاني القرآن الكريم، 1971، نقلا عن: غسان حمدون، "كتاب الله في إعجازه يتجلى"، صنعاء الجمهورية اليمنية، مركز عبادي للدراسات و النشر، السلسلة الإسلامية المقارنة3، الطبعة الأولى 1422هـ/2002م ص: 30-31.

[2] موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة الشيخ حسن خالد، بيروت لبنان، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة 1411هـ/1990م ص: 18

و"الأمي" قد أصبح شاعرا أو ساحرا مجنونا؛ أو أن بشراً آخر علمه القرآن؛ و الآيات القرآنية ليست إلا[**أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**] [1].

ويرد القرآن على جميع هذه المزاعم ردا قاطعاً، فبخصوص تهمة السحر والشعر والكهانة يقول الله Y: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ][2].

وبقي رفض القرآن ورسالة الإسلام مستمرا على مر الأزمان، تتزعمه في كل مرة فئة من الناس، فبعد مشركي مكة ويهود ونصارى المدينة، جاء زنادقة العصر العباسي من مسيحيين ومجوس بآرائهم الطاعنة في القرآن، وقد كان حضورهم الكبير في المجتمع العباسي دافعا للعلماء المسلمين إلى الرد عليهم ونقض عقائدهم، خاصة أن كثيرا منهم كانت له مكانة كبيرة في الدولة الإسلامية، وهم من عرفوا في الفكر الإسلامي بالزنادقة[3]، أضف إلى مكانتهم الوظيفية فقد كانت لهم مجالسهم التي يدرُسون فيها كتبهم ومؤلفاتهم، يقول القاضي عبد الجبار فيهم: " ومن الكتب التي وضعها الملحدة وطبقات الزنادقة كالحداد وأبي عيسى الوراق وابن الروندي والحصري وآمالهم في الطعن في الربوبية وشتم الأنبياء صلوات الله عليهم وتكذيبهم فإنهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط الإسلام وسلطانه وملوكه أكثر مما كانوا إذ ذاك وأشد ما كانوا ولهم القهر والغلبة والعز."[4]، ولوجود هذه المجالس التعليمية التي كانت لهم والتي تسببت في افتتان بعض المسلمين بهم، انتقدهم القاضي عبد الجبار حيث قال : " والمنانية تزعم أن الفلاسفة عنها أخذت هذه المذاهب، وإنما ذكرت ذلك بهذا

[1] سورة الفرقان، آية:5

[2] سورة الحاقة، الآيات:40-42

[3] ابن النديم للفهرست، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له يوسف علي طويل وضبط فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م.

[4] القاضي عبد الجبار الهمداني، تثبيت دلائل النبوة تحقيق وتقديم عبد الكريم عثمان، لبنان، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، د ت، الجزء الأول، ص:129

المكان لتعرف مقدار عقول الزنادقة والملحدة ولولا فتنة قوم من الرؤساء والكتاب والوزراء بهم ما ذكرناهم "[1].

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على الأخص، أخذ بعض علماء الغرب من المستشرقين يعيدون اعتراضات وافتراضات مماثلة حول القرآن، وذلك بحجج وادعاءات متنوعة، ورواد هؤلاء المستشرقين ألوي سبرنجر (Aloy Sperngerِ)، ووليم ميوير (William Muir) وثيودور نولدكة (Theodore Noldeke) ، واجناز جولدتسيهر (Ignaz Goldziher) ، وفلهاوزن (W. Wellhausen) ، وليون كايتاني (Leon Caetani) ، ودافيد ساموبل مرجليوث (David Samuel Margoliouth). وقد قام بتطوير آرائهم وتضخيم استنتاجاتهم آخرون تبعوهم في القرن العشرين الميلادي، وفي مقدمتهم ريتشارد بيل (Ritchard Bell) وتلميذه وليم مونتغمري وات (William Montgomery Watt). وجميع هؤلاء المستشرقين يسعون بشتى الأساليب إلى الاستنتاج أن القرآن الكريم من تأليف محمدρ.

ولكن في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي بدأ اتجاه جديد بين الجيل الجديد من المستشرقين الذين يقترحون أن القرآن ليس بتأليف محمدρ فحسب، بل إنه اتخذ شكله الحالي تدريجيا عبر تطورات وتعديلات تمت في القرنين الأول والثاني من الهجرة. والجديرون بالذكر من بين هؤلاء المحدثين ج. وانسبرة (J. Wansbourough)، وج.أ. بيلامي (J.A. Bellamy) ، وأندرورين (Andrew Rippin). وقد قام ببسط ادعاءاتهم وترويجها آخرون أمثال باتريشيا

[1] نفس المصدر السابق ص: 80

كرون (Patricia Crone)، ومايكل كوك (Michael Cook)، وكينيث كراج (Kenneth Cragg)، وتوبي ليستر (Toby Lester).[1]

وموضوع القراءات من المواضيع التي استغلها الطاعنون في كتاب الله Y ليستدلوا على دعواهم الرامية إلى التشكيك في تواتر النص القرآني، وذلك بالتشكيك في تواتر القراءات القرآنية، واعتبارها من إنتاج من تنسب إليهم، وبالتالي يكون القرآن من صنع بشري، وإذا كان كذلك فإمكانية اختراقه واردة، بل يعتقدون أنه تم ذلك فعلا في التاريخ اعتمادا على روايات موضوعة ومدسوسة، وإشكاليات سياسية عرفها التاريخ الإسلامي، فيكون القرآن نص بشري كسائر النصوص البشرية، وتراث بشري يجب التعامل معه كما نتعامل مع أي نص من التراث الإنساني، وهذا الكلام —كما سنحاول بيانه- باطل في واقع الحال ومخالف لما هو معلوم بالضرورة.

والموضوع جدير بالبحث، بل يلزمه -إلى جانب مواضيع أخرى ذات الصلة بالقرآن- بحث مستقل لبيان خطإ كثير من الروايات والأقوال الواردة للأسف في كتب السيرة والتفسير والتاريخ ومجموع كتب التراث الإسلامي، إذ لا نستطيع إنكار أن أغلب الطاعنين في القرآن المثيرين للشبهات حول نصه، اعتمدوا على روايات خاطئة، ونقلوا أقوالا باطلة موجودة في التراث الإسلامي، وحاولوا من خلالها إثبات أن القرآن صناعة بشرية، فما كتبه سلمان رشدي في كتابه آيات شيطانية مستوحى لكل أسف من قصة الغرانيق التي اشتملت عليها كثير من الكتب الإسلامية[2]، وعلى نظير هذه الروايات اعتمد أبو موسى الحريري في كتابه "عالم المعجزات: بحث في تاريخ القرآن" ليدس شكوكه وسمومه في صحة الوحي الإسلامي يقول: "ولكننا نسأل كيف يتفق

---

[1] محمد مهر علي، مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم، بحث منشور على الإنترنيت على العنوان:
www.tafsir.org/books/open.php?cat=90&book=809

[2] وردت قصة الغرانيق في تفسير الطبري البيان في تفسير القرآن، بيروت دار الكتب العلمية المجلد9، ص:75 شرح سورة الحج آية:53، وقد استغل هذه القضية بعض المستشرقين الذين ترجموا القرآن أمثال بلاشير، وأدخلوا قصة الغرانيق الباطلة في متن القرآن:
Le Coran, traduit par Régis Blachere, Paris, G.P. Maisonneuve, 1957, p.561

حديث الأحرف السبعة بمعانيه المختلفة مع معجزة إعجاز القرآن ومعجزة حفظه؟ ثم لئن سلمنا بصحة الأحرف السبعة ونسبتها إلى النبي فلماذا أسقطها عثمان بن عفان ومنع تلاوتها؟ ويؤكد الطبري بقوله: "إن الأحرف الستة الأخر أسقطها عثمان ومنع تلاوتها ولا حاجة بنا إلى معرفتها لأن الحكمة في جمع الناس على حرف واحد والصواب ما فعل عثمان"[1]، ولو كانت الأحرف السبعة رخصة نبوية فلماذا اقتتل الناس بسببها؟ ونحن نسمع عن أنس بن مالك هذه الرواية قال اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون.." [2].

إن المنهج الذي اتبعه هؤلاء المستشرقون ومن والاهم من المسلمين منهج باطل، إذ لا يمكن الاستدلال على بطلان نص ما بنصوص أقل حجية منه، **فالقرآن باعتباره نصا قطعيا لا يجوز عقلا إبطاله بروايات ظنية لا ترقى إلى مستواه من حيث الحجة والإثبات.**

من أجل ذلك سنحاول في هذا المبحث إيضاح نشأة القراءات القرآنية بعيدا عن الروايات المغلوطة الواردة في الموضوع.

يعتقد الكثيرون أن اختلاف القراءات القرآنية نشأ باحتمال الرسم القرآني غير المنقط لعدة أوجه من الدلالة النحوية التي يحتملها السياق اللغوي، وهو أمر غير صحيح إذ لو كان الأمر كذلك لوجب أن يشمل مجموع مادة النص القرآني لجريان الأمر نفسه عليها، بينما نلاحظ أن اختلاف القراءات كان لمجموعة محددة من الكلمات دون غيرها، وقد تم الاعتناء بها وحفظها من قبل العلماء، وإقراؤها للناس على هذا الوجه، مما يدل على أن القراءات سنة متبعة مأخوذة عن النبيε بشكل متواتر وثابت.

[1] الطبري ابن جرير، البيان في تفسير القرآن، ج/1 ص:66.

[2] أبو موسى الحريري، عالم المعجزات: بحث في تاريخ القرآن، بيروت 1984، سلسلة الحقيقة الصعبة3، ص:142

لقد نزل النص القرآني على النبيε مفرقا لمدة ثلاث وعشرين سنة، وكانت بعض السور القصار تنزل جملة واحدة، فيما كان بعض منها إلى جانب السور الطوال ينزل على دفعات، "ومن أمثلة ما نزل مفرقا قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) إلى قولهY: (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)وأول ما نزل من سورة الضحى (وَمَا قَلَى) وفي الحديث أن (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الْأُولَى) نزلت وحدها. وروى ابن جرير أن (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) نزلت وحدها، وكذلك سورة الليل غالب آياتها نزلت مفرقة. وأما النوع الثاني (الذي نزل جمعا)... فمنه سورة الصف ففي المستدرك وغيره من حديث عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب النبيρ فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملناه فأنزل الله (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) إلى آخر السورة، فقرأها علينا رسول اللهρ"[1].

وكان نزول القرآن بهذه الكيفية يقتضي قبل وضع الآية الجديدة بمكانها، تلاوة الآيات التي نزلت قبلها حتى يصل لمحل الآية الجديدة فيتلوها النبيρ بمكانها، أو يعيد بضع آيات فقط ثم يتلو الآيات الجديدة على إثرها ليتم ربط الآيات ببعضها وإظهار محلها من السورة، وهذا ما كان يفعله النبيρ بعد انتهاء الوحي فقد كان يطلب أحد كتبة الوحي المتواجدين حينئذ، ويأمره أن يضع هذه الآيات الجديدة بين آية كذا وكذا من سورة كذا. واستمر نزول النص القرآني على هذا النمط مع استمرار مراجعة كل ما نزل سابقا من قبل الوحي وتعهده بالحفظ، حتى كان العام الأخير الذي توفي فيه النبي فقد تمت مراجعة النص القرآني كاملا مرتين كما ورد في الخبر التاريخي، وذلك لضبط وتوثيق النص كاملا، وهذه التي يسميها العلماء العرضة الأخيرة للنص القرآني على النبيρ.

وقد روى النسائي قال: "كان رسول الله ε مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض ممن كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في

[1] أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمان أبي بكر السيوطي، التحبير في علم التفسير، بيروت دار الكتب العلمية الطبعة الأولى1408هـ/1988 ص:52.

السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا"[1] ، فالحديث يؤكد إعادة تلاوة ما نزل من القرآن في كل مرة تنزل فيها آية أو آيات جديدة وكانت المراجعة تتم من قبل جبريل υ أولا ثم من قبل النبيρ ثانيا ثم من قبل كاتب الوحي أخيرا، وكان النبيρ يصحح قراءة الكاتب إذا كان فيها أي خلل، وهو ما يؤكده حديث زيد بن ثابت "كنت أكتب الوحي عند رسول الله ε وكان يشتد نفسه ويعرق عرقا شديدا مثل الجمان ثم يسرى عنه فأكتب وهو يملي علي فما أفرغ حتى يثقل فإذا فرغت قال اقرأ فأقرؤه فإن كان فيه سقط أقامه"[2].

"فالنص القرآني لم ينزل مرتين، وإنما نزل مرة واحدة، ولكن عرضه ومراجعته مع النبي تم مرات ومرات طوال فترة نزول النص، وهذا الأمر يفسر نشوء اختلاف القراءات فلقد حصل ذلك أثناء العرض والمراجعة من قبل الوحي وليس في بدء نزول النص... وكون النص القرآني كان يكتب فور نزوله فمن الطبيعي أن لا يكتب أثناء المراجعة والمدارسة له وهذا يدل على أن الرسم القرآني لا يحتوي أوجه القراءات وبالتالي بقيت القراءات وسيلتها الوحيدة والأساسية للنقل هي التلقي سماعا وحفظ ذلك في الصدور"[3].

والاختلاف في القراءات هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد، فلا نجد في قراءة ما يخالف الأخرى أو يناقضها، كما لا نجد في إحداها آيات لا وجود لها في الأخرى، وإنما الآيات هي هي في كل قراءة، أما بالنسبة للكتاب المقدس فالأمر يتعلق بأسفار محذوفة من نسخة وأسفارا مبدلة في أخرى، ومعلومات مذكورة في سفر في نسخة معينة ولا ذكر لها في السفر نفسه في نسخة أخرى،

---

[1] أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، السنن الكبرى، مراجعة د.عبد الغفار سليمان البندار سيد كسروي حسن، بيروت دار الكتب العلمية،1991م-1411هـ، الجزء 5 ص: 10 رقم الحديث: [94494].

[2] أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، المعجم الكبير، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، مراجعة حمدي بن عبد المجيد السلفي، 1404هـ/1983م، رقم الحديث4888، الجزء5 ص:142

[3] سامر إسلامبولي، ظاهرة النص القرآني.. مرجع سابق، ص: 46

أو في سفر آخر من النسخة نفسها، أما القرآن فنص واحد عند جميع المسلمين بقراءات معلومة ومحددة ومتواترة وثابتة عن الرسولρ.

إن وحي القرآن كان بلغة تتلى على الرسولρ الذي يقوم بدوره بتلاوته على الناس كافة مؤمنين وكافرين، بل كان يتحدى الكافرين بالإتيان ولو بآية من مثل القرآن، ولو كانت مسألة القراءات التي يتشدق بها المستشرقون اليوم قادحة في نص القرآن لما أضاع المشركون هذه الفرصة الثمينة للطعن في معجزة الإسلام، ولأثاروها كما أثاروا مسائل أخرى اعتقدوا أنها تقدح في النص القرآني من قبيل ادعائهم أن القرآن كلام البشر، واتهامهم للنبيρ بالشعر والسحر والكهانة.. وحاولوا خداع النبيρ لما طلبوا منه أن يبدل القرآن بقرآن غيره (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) [1] لكن الله عالم بمكرهم وخداعهم، فغرضهم من وراء هذا الطلب إثبات أن القرآن من تأليفه ρ فأجابهم: (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [2] فلو كان القرآن من صناعتهρ فما الذي أسكته كل هذه المدة السابقة.

والتشكيك في القرآن من خلال التشكيك في قراءاته ليس بدوره بالأمر الجديد، ولا يعتبر المستشرقون أول من "تنبه له وفطن به"، بل هو أمر قديم أثاره مسيحيو بيزنطة منذ عدة قرون، ولم

[1] سورة يونس، آية: 15

[2] سورة يونس، الآيات: 15-16

يتمكنوا من النيل من القرآن، وقد رد عليهم كثيرون، أمثال القاضي عبد الجبار الهمداني المعتزلي[1]، والقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني[2].

إن مصيبة بعض المستشرقين ومن سار على دربهم من المفكرين العرب[3] تتمثل في تأثرهم بمناهج الغرب في نقد الكتاب المقدس ومحاولة إسقاطها على النص القرآني مع أن الفرق شاسع وكبير، إذ القرآن وحي من الله بألفاظه ولغته وعباراته، أما الكتاب المقدس فباعتراف المؤمنين به ليس وحيا من الله، "وهنا يجب علينا أن نؤكد باقتضاب أن الكتاب المقدس لا يُعد كتاباً واحداً كما يدل اسمه (بيبل = كتاب) خصوصاً وإنه لم يؤلفه كاتب واحد (لا الله ولا أحد مؤرخي سير القديسين)، بل هو مجموعة مختلفة تماماً من الكتب كتبها مؤلفون مختلفون تماماً وفي أزمنة وحضارات متباعدة عن بعضها البعض.

ويظهر هذا أيضاً في الاختلافات الضخمة في كل الجوانب على الأخص في الجانب الأخلاقي والدنيوي، فهو كتاب ليس له وحدة [مفهوم مترابطة]، وهذا أيضاً هو السبب الذي يُمكِّن المرء من تعليل كل مفهوم من مفاهيم الكتاب المقدس، حيث إنه يحتوي على شيء من كل شيء. لذلك يشبّه البروفسور شورر "الكتاب المقدس" بصورة بالكاتدرائية القديمة ذات المظهر العظيم، التي

---

[1] القاضي عبد الجبار الهمداني، "تنزيه القرآن عن المطاعن"، بيروت دار النهضة الحديثة.

[2] للقاضي أبي بكر الباقلاني كتابان في الموضوع هما: "إعجاز القرآن"، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف 1963، سلسلة ذخائر العرب. وكتاب "نكت الانتصار لنقل القرآن"، دراسة وتحقيق محمد زغلول سلام، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية، كتب الدراسات القرآنية1.

[3] أمثال الدكتور كامل النجار في كتابه "قراءة نقدية للإسلام" الموجود على صفحات الإنترنيت بالموقع:

htpp://www.servant13.net/articl/kamel_alnajar.htm

الذي يحاول من خلال روايات ظنية إعادة إثارة شبهات قديمة حول الإسلام معتقدا أنه أول من تنبه إليها وأنه صاحب السبق فيها، وما هو إلا ناقل ومقلد لعدد كثير من المستشرقين.

إشترك في بنائها أجيال كثيرة، وهي كذلك عنده أشبه بقطعة فنية رائعة، ولكنها على الرغم من ذلك بشرية الصنع."[1]

وما يدعيه المسيحيون من كون الله أوحى إلى الأنبياء مفاهيم ومعاني تاركا لهم حرية صياغة القالب اللغوي واختيار الأسلوب المناسب لزمانهم لتبليغ هذه المفاهيم إلى الناس، هي مراوغة مسيحية لتورية الأخطاء الفادحة التي اشتمل عليها النص، بنسبتها إلى شخص النبي الذي صاغها ولم يحسن صياغتها، وهي مفهوم الإلهام مفهوم اختلقته الكنيسة لتبرر الأخطاء التي تعتري الكتاب المقدس، فقد وجدت في مفهوم الإلهام مخرجا تُبقي به على إلهية النص، فاعتبرت أن المعاني موحاة من الله، أما صياغتها لغويا فصناعة بشرية محضة.

ومهما يكن فالنص القرآني بقراءاته ثبتت صحته وسلامته من كل تحريف بموافقته للواقع بشكل دائم ومستمر، وباتفاق المسلمين بجميع طوائفهم وإجماعهم عليه، وننقل هنا ردا للشيعة على من يتهمهم بتحريف القرآن أخذناه من موقع على الإنترنيت[2]:

"قال لبيب السعيد في نفي أدلة التحريف وذكر رواياتها : ما ادعاه بعض الغلاة المنتسبين إلى الشيعة : أن عليا عليه السلام جمع القرآن فكان فيه ما سموه «فضائح المهاجرين والأنصار» وأن عمر طلب إلى زيد بن ثابت أن يسقط من القرآن هذه الفضائح .[3] وهذه الرواية ظاهرة النحل والبطلان من وجوه:

---

[1] حقيقة الكتاب المقدس، تولى رئاسة التحرير جان شورر راعي كاتدرائية بجنيف، نقلا عن الموقع الإلكتروني:
http://www.ebnmaryam.com/Truth-of-bible.htm

[2] محمد حسين علي الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1403 هـ. 1983 م .
http://www.imambaqer.net/ara/books/dawat/index.php

[3] لبيب السعيد. الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم أو المصحف المرتل بواعثه ومخططاته، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967 م.

أ . إن الروايات متظافرة على جمع الإمام علي للقرآن حتى سمي ذلك بمصحف علي، وهذا المصحف لا يختلف عن مصاحف بقية الصحابة ممن جمعوا القرآن، ولا عن القرآن المعاصر بشيء، لأن الإمام علي عليه السلام كان قد ولي الخلافة، ولو كان في القرآن شيء منه لم يثبت لأثبته وفق ما يراه وهو الإمام الحاكم آنذاك.

ب . قد يستفاد من كثير من النصوص... أن الإمام علي عليه السلام قد جمع القرآن ورتبه تأريخيا بحسب النزول وأسبقيته، ولا مانع من هذا، كما أنه قد قسمه على سبعة أجزاء بحسب ما أثبته الزنجاني بعنوان (ترتيب السور في مصحف علي) وقد طبع في لايبزيك عام 1871 م[1].

ومع هذا فلا تختلف سور القرآن ونصوصه عن مصاحف المسلمين في شيء، إلا أنه قد يجمع التأويل إلى جنب التنزيل... فيكون مصحفه قد اشتمل على التأويل الصادر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبر به الإمام، أو الصادر عنه هو بالذات مضافا إلى أصل القرآن الكريم، ومن قال بغير هذا فأهل البيت والإمامية براء منه.

ج . كيف يصح أن تكون هناك سور وآيات قد فاتت جميع المسلمين، والقرآن منتشر بين ظهرانيهم، ولم يستطع أحد أن يحفظ منها شيئا، وقد سبق لنا القول بأن حفاظ القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمئات.

د . إن ما قدمه المهاجرون والأنصار للإسلام والقرآن يعد مفخرة وأي مفخرة بحد ذاته، فما هو الذنب الذي اقترفه هؤلاء في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرادى أو مجتمعين ، حتى ينزل فيهم ما يسمها بالفضائح، وهب أن معدودين تجاوزوا حدودهم، فما نصنع بأولئك الذين يقول فيهم القرآن جهارا نهارا في سورة الفتح: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

---

[1] الزنجاني، أبو عبد الله (1309. 1360هـ) تأريخ القرآن، الطبعة الثالثة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1969 م ص: 69 . 73 .

بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[1].

وقد نفى السيد المرتضى علم الهدى (ت436هـ) القول بالتحريف جملة وتفصيلا فقال: "إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان، والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت، والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه، لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيرا أو منقرصا مع العناية الصادقة والضبط الشديد.. إن العلم بتفسير القرآن وأبعاضه في صحة نقله كالعلم بجملته، وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصتفة ككتاب سبويه والمزني، فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما حتى لو أن مدخلا أدخل في كتاب سيبويه بابا في النحو ليس من الكتاب لعرف وميّز وعلم أنه ملحق، وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المزني، ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه، أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعر"[2]

فهذه شهادات الشيعة بصحة القرآن، وإن دعوى توفرهم على قرآن مخالف لقرآن أهل السنة دعوى باطلة لا أساس لها من الصحة، إنما يروج لها أعداء الإسلام مستغلين في ذلك الخلاف السني الشيعي في الأمور الدينية الأخرى، "فالنص القرآني بدأ حقا، واستمر بهذه الصفة إلى أن وصل إلينا حقيقة تاريخية كنص ثابت لم يتعرض للاختراق أبدا، وأية محاولة جرت للتلاعب فيه

---

[1] سورة الفتح، آية:29

[2] الطبرسي أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن مطبعة العرفان صيدا 1333هـ، نقلا عن الصغير محمد حسن علي، تاريخ القرآن، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى 1403هـ/1983م، ص: 167.

كانت تجهض ذاتيا لتفككك وهزالة المحاولة أمام عظمة النص القرآني، ومع ذلك يأتي باحث[1] ليغوص في التراث ويتتبع الروايات التي وضعت بدافع إيديولوجي ويجمعها ليناقش على موجبها حقيقة مشاهدة في الزمن المعاصر ويحاول على أقل احتمال التشكيك بهذه الحقيقة،... والنص القرآني هو من هذا القبيل فهو موجود بين أظهرنا قابل للدراسة والتأكد من صحة مضمونه على صعيد الآفاق والأنفس من خلال مراكز ومؤسسات علمية على كافة الاختصاصات فإذا ثبت أن مضمونه خطأ ومناقض لمحل الخطاب من الآفاق والأنفس يكون نصا قد تم تحريفه والتلاعب به قطعا رغم أنف الجميع ولو ألف المؤمنون بصحته آلاف المجلدات ونقلوا الإجماع على ذلك والتواتر له، لأن النص القرآني لا يمكن أن يتناقض مع محل خطابه ولا بأي شكل، أما إذا ثبت أنه نص منسجم كل الانسجام مع سيرورة وصيرورة الآفاق والأنفس بحيث أصبح النص القرآني المتلو هو صورة لغوية للصورة الموضوعية فلا شك أن هذا النص رباني وهو صحيح لم يتعرض لأي تحريف أو تلاعب ولو جرت في التاريخ محاولات لذلك... فالأمر تجاوز موضوع السند والإسناد وعدالة الرواة والإشكاليات التي رافقت النص القرآني لأن كل هذه الترهات كانت تسقط في زمانها أمام نور النص القرآني... فالحقيقة أقوى من الجميع لأنها مشاهدة ومن ينكر عالم الشهادة وهو يراه لا يعتد بقوله... وبهذا الأمر أصبح النص القرآني متواترا إنسانيا، وهذا لا يعني انتفاء وجود إشكاليات رافقت تواتر النص في الزمن الأول وذلك بسبب الصراع بين الحق والباطل... ومسألة تواتر النص القرآني مسألة متواترة في الأمة الإسلامية ليست هي محل نقاش أو دراسة، فالنص القرآني واحد في مشارق الأرض ومغاربها واليقين لا يزول إلا بيقين مثله، أما الظن فلا يعتد به أمام اليقين أبدا"[2]

إن خير دليل على صحة النص القرآني بقراءاته المتواترة موافقته للآفاق والأنفس، بغض النظر عن مدى صحة السند لأن إثبات السند يؤكد صحة نسبة القرآن إلى النبيρ وليس صحة

---

[1] ويقصد به المؤلف طيب تيزيني الذي ألف كتابه "النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة"، والذي رد عليه سامر إسلامبولي في كتابه ظاهرة النص القرآني.. الذي نقلنا منه هذه الفقرات.

[2] سامر إسلامبولي، ظاهرة النص القرآني... مرجع سابق، ص: 5-7.

نسبته للهY، فقوم النبي ρ لم يجادلوه في صحة نسبة القرآن إليه، وإنما جادلوه في صحة ادعاء نقله هذا القرآن عن الله، وقد تمكن ρ من إثبات صحة ادعائه من خلال القرآن نفسه، لأن القرآن بمحتواه ومضمونه هو نص حيوي مستمر في العطاء خالد في هدايته للبشر في كل زمان ومكان، فمن أراد أن يكذب القرآن فعليه تكذيبه من هذا المنطلق، أما أن يلجأ إلى الروايات المدسوسة غير الموثوقة ليدعي أن النص القرآني قد تعرض للتبديل والتغيير فمثله (كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) [1]، وموافقة الآفاق والأنفس والواقع هي التي يعاني الكتاب المقدس من فقدها بما تضمنه من تناقضات عقائدية وأخلاقية وواقعية، ولو كان الكتاب المقدس كلمة الله كما يدعي أصحاب نظرية الوحي المطلق، لما احتوى على تناقض واحد، ولما احتوى أيضاً على أحد التناقضات الواقعية، وبالطبع لا يمكن افتراض أن الله نفسه قد وقع في هذا الخطأ أو أنه لم يعرف ما أوحى به بعد مرور فترة زمنية ما، وكذلك أيضاً لا يمكن افتراض أنه أوحى لمؤلف أحد الكتب المقدسة وصفاً لحدث أو واقعة ما، ثم أوحى لمؤلف آخر غير ذلك.

يقول هـ. براون: "إن الأجزاء الرئيسية التي يتكون منها العهد الجديد ليس لها مفهوم موحد فيما يتعلق بالظواهر الواقعية وليس لها محتوي عقائدي يتعلق بالإيمان"[2].

حاولنا بشكل مقتضب الوقوف على حقيقة القراءات القرآنية وبيان أنها سنة متواترة ثابتة عن النبيρ كل قراءة منها كافية شافية بذاتها، وأن كل المحاولات من أجل تشبيهها بالنسخ المختلفة لنص الكتاب المقدس تبقى مغالطات يسعى المسيحيون من خلالها تسوية القرآن بالكتب الأخرى لما وجدوا أنفسهم لا يتوفرون على نص ديني صحيح، لأن النص القرآني له رسم واحد معلوم، لغته هي العربية، وله قراءات معينة ومحدودة، أما الكتاب المقدس فلا يتوفر على نص أصلي على

[1] سورة الرعد، آية:14

[2] حقيقة الكتاب المقدس، جان شورر، عن الموقع الإلكتروني السابق:

http://www.ebnmaryam.com/Truth-of-bible.htm

الإطلاق وكل ما يتوفر عليه ترجمات حديثة تعاني من الاختلافات والتناقضات ما لا يمكن لأحد حصرها بتاتا. وفي هذا الصدد يقول هـ. براون: "ومما يجب علينا دائماً أبداً التنبيه عليه أن الناس يقيِّمون الكتاب المقدس من ترجمته... الأمر الذي لا يثير أية أهمية حيث إن التراجم لا تعكس أبداً الصورة الصحيحة لحالة النص الأصلي، ولأنها تراجم فلابد أنها تحتوي على قرارات كثيرة تمت **بصورة إجبارية قد تكون خاطئة**، وهي في الغالب كذلك، يضاف إلى ذلك أن كل التراجم **تم صبغها بصورة ما غير منزهة عن الغرض**، وغالباً ما نجدها بدون **أسماء المترجمين** الذين قاموا بعملية الترجمة هذه، تماماً مثل المخطوطات القديمة، وقد تم هذا بالطبع بنية توصف بأنها أحسن ما تكون في أغلب الحالات. لذلك يجب الرجوع إلى "**النص الأصلي**" إذا ما كنا نريد **تقييم الكتاب المقدس بصورة جديّة**.[1]

خاتمة

لا شك إذن أن النصين (القرآن والكتاب المقدس) مختلفان، من حيث اللغة والتدوين والجمع والمضمون وأن الفرق بينهما شاسع كالفرق بين السماء والأرض، وعليه تكون دعوى تطبيق المناهج النقدية التي عرفها الكتاب المقدس على القرآن دعوى باطلة غير علمية وإيديولوجية، فالمنهج الفيلولوجي أو التاريخي مثلا اللذين طبقا على الكتاب المقدس لا يمكن تطبيقهما على القرآن ولقد ضرح بذلك الدكتور عابد الجابري رغم دعوته المستميتة لمراجعة التراث الإسلامي وضرورة نقده في حوار أجرته معه مجلة مقدمات خيث يقول: ""فيما يخص القرآن لا نستطيع الشك في النص الذي بين أيدينا اليوم، لأنه نفس النص الذي جمع ورتب وأقر كنص رسمي زمن الخليفة الثالث عثمان...ذلك لأن المسلمين والصحابة أنفسهم قد اختلفوا وتنازعوا وقامت حروب بينهم، ومع ذلك لم يتهم أي منهم طرفا ما بالمس بالقرآن كنص. وكان هناك من بين كبار الصحابة خصوم

[1] نفسه، نفس الموقع الإلكتروني.

لمعاوية قاتلوه يوم صفين وهم يخاطبونه وقومه الأمويين قائلين: "قاتلناكم على تنزيله واليوم نقاتلكم على تأويله" بمعنى أن هؤلاء الصحابة قاتلوا قريشا بزعامة بني أمية وعلى رأسهم أبو سفيان قبل أن يدخلوا الإسلام ويؤمنوا بالقرآن وحيا منزلا، واليوم يوم صفين يقاتلونهم على تأويله تأويل القرآن. إذا فالخلاف والنزاع زمن عثمان ومعاوية كان حول التأويل ولم يكونا يمسان في شيء التنزيل (=النص). أما ما يروى عن بعض الشيعة من أنهم شككوا في آية أو آيتين سواء على مستوى الصيغة أو مستوى البتر، فإن أئمة الشيعة في الماضي والحاضر يتبرأون من ذلك ويجمعون على أن القرآن كما هو متداول اليوم هو نفسه القرآن كما كان زمن النبي، وإذن فليس هناك مجال لممارسة النقد التاريخي حول صحة النص القرآني، ولا أعتقد أنه قد يكشف عن شيء آخر غير ما هو معروف"[1].

ونرجو في بحث قادم أن نشتغل على نماذج تطبيقية لأصحاب هذه القراءات الحداثية للقرآن لنبين الخلل العلمي في تحديدهم لبعض المفاهيم (مفهوم الوحي والإلهام وعصمة الكتب) والمناهج (الفيلولوجي والتاريخي) التي يرتكزون عليها في قراءاتهم والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

[1] في قضايا الدين والفكر حوار مع محمد عابد الجابري، مجلة مقدمات العدد 10، صيف 1997، ص: 45-46